تيودورا

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

أولادنا

١٩

تيودورا

بقلم : عادل الغضبان

الطبعة الخامسة

دار المعارف

١

كانت القسطنطينية فى العِقْد الثانى من القرن السادس الميلادى ، عاصمة الدولة البيزنطية ، بل عاصمة العالم المتحضّر ، يمتدّ أثرها ونفوذها إلى القريب والبعيد من الممالك والأمم .

وامتازت تلك العاصمة الفريدة ، بأن كانت فى تلك الفَتْرَة مَجْمعَ النَّقيضين من كل شىء ، فإن ازدحمت بالأمراء والنُّبلاء والأغنياء ، فقد غصّت بالعبيد والأجرَاء والفقراء ، وإن ارتفعت فوق تلالها الدُّور الفخمة ، والقصور الممرَّدة ، والصُّروح الأنيقة ، فقد اكتظَّتْ دروبها الضيِّقة ، وأزقّتها المظلمة ، بالمساكن الحقيرة ، والأكواخ المتداعية ، كما كثرت فيها المغاور والأقبية والسَّراديب ، يأوى إليها المتسوِّلون واللصوص وقطّاع الطُّرق .

وكان المتربع على عرش المملكة البيزنطية فى تلك الآونة ، الملك « جُسْتان » الشيخ وزوجه العجوز ، وكانا حريصيْن على استتباب الأمن فى العاصمة حِرْصَهما على رعاية العادات النبيلة ، والتّقاليد الشريفة الموروثة ، يسنّان لها القوانين الصارمة ، ويأخذان بأشدّ العقاب ، كلّ من تُسَوِّل له نفسه مخالفة القانون ، ولا سيما قانون الطبقات .

وسواء قَسَتْ تلك القوانين أم تراخى حَبْلُها ، فحافظ المدينة « حنّا القبلوكى » هو الحاكم بأمر الله فيها ، فإن شاء جدّ وشدّ ، وإن شاء تغاضى وتساهل ، حسبما توحى إليه أغراض نفسه وأهواؤها ، فقد كان الرجل صاحب مطامع واسعة ، لا تقف عند حد التسلط على العاصمة ، وإنفاذ أمره فى كل كبيرة وصغيرة ، ولا تنتهى عند ملء خزائنه بالذهب ، وكسْب الأنصار والتابعين ، فإلى أعظم من هذا كانت تتوق نفسه ، فأمنيته الكبرى أن يستولى على العرش بعد موت الإمبراطور « جستان » الشيخ الفانى أو قبل وفاته ، ويُقْصى عنه الأمير « جستنيان » ابن أخى الإمبراطور ووارث عرشه ، وكم كان يَوَدُّ لوضَرَبَ ضربته الكبرى فى غياب أمير الجيوش القائد « بلساريوس » المشغول بمحاربة الفرس ، ولكنه كان يرى أن الثمرة لمّا يَحِنْ قِطافها ، وأنه لابدّ له من التريُّث والانتظار ، والإمعان فى حَبْك مؤامرته حبكاً محكماً .

ولم يكن الأمير « جستنيان » ليعلم من أمر تلك الأهواء شيئاً ، فما كان يدور بخَلَدِه أن ترقى المطامع بمحافظ المدينة إلى شَقّ عصا الطاعة ،

والاستيلاء على عرشٍ لا يُدْنيه من أصحابه أى سبب من الأسباب، فكان الأمير مشغولاً عن هذه الشئون بشبابه حيناً، وبدراساته حيناً آخر، يوزِّع بينهما وقته وفراغه.

وكان يحلو له أن يجول فى المدينة ليلاً ونهاراً، ويمتِّع النفس بمناظرها الطبيعية الخلاَّبة، فتراه لا يفتأ يَرُود شرق المدينة، حيث الحدائق الغناء، والقصور المشرفة على خليج القسطنطينية، فيكحل ناظرَيْه بجمال الطبيعة وآيات البناء، ثم يلتفت إلى شواطئ آسيا، فتتراءى لعينيه حافلةً بالغابات الكثيفة، وقد سَمَقَتْ فيها الأشجار وتعانقت الأغصان، فتأخذه هزّة الإعجاب، ويرقى بنفسه إلى الخالق ممجِّداً مسبِّحاً.

فإذا توغَّل فى الأحياء، ومرّ بمصنع الذَّخيرة، وبلغ مسمَعه طَرْقُ الحديد وجلبةُ العمَّال والقَيُون، ملكت نفسَه العزَّة والفخر، وطار به الفكر إلى بلاد فارس، حيث ينتقل جيش « بيزنطة » من نصرٍ إلى نصر، ومن فتحٍ مبين إلى فتحٍ مبين.

وإذا انتهى به السَّير إلى قصر مجلس الشيوخ، وقف يتأمَّله طويلاً حتى تختفى عن نظره جدرانُه وقِبابه، وتنكشف له أروقته وقاعاته، ويرى بعين البصيرة والخيال، كيف تُحاك المؤامرات بين أعضائه، وكيف تتَّفق الأهواء وتفترق، وكيف يتصارع الحقّ والباطل فى نفوس المشرّعين وعلى ألسنة الخطباء، فيوَدّ لو أن القدر مَهَرَ أمَّته بمجلس لا يسعى إلا إلى تأييد الحق، ولا يسنّ إلا القوانين التى تكفل للأمّة الحق والعزّة والرّخاء.

وكثيراً ما مرّ في جولاته بعمود دقيق الصُّنْع ، رفيع الذّرى ، جميل الزخارف ، هو عمود « قسطنطين » فانتزعت ذكرى ذلك العاهل منه الإعجاب والإجلال ، وخصّه بمستطاب الثناء على ما حفلت به جوانحه من عظمة وعبقريّة ، بنى بها ذلك المجدَ الأثيل الموطّد الأسُس والأركان .

وكانَ يختال سروراً وطرباً ، كلما وصل إلى «مَيْدان السّباق» ، فاستعرض على لوح الخيال براعة الفرسان المتسابقين ، يركبون المركبات تطير بها الجياد المُطَهّمة ، ويتبارَوْن بها في قدرة وقوّة وشجاعة ، غير حافلين بالموت وهو منهم على قاب قوسين أو أدنى ، والجمهور من حول الميدان يصفّق لهم ويهلّل ، ويشقّ تصفيقه وتهليله أعنّة السماء . ولكن كان يحزّ صدر الأمير « جستنيان » أن يتذكر انقسام الأمة على نفسها في شئون كل سباق ، فهناك الفريق الأخضر ، وهناك الفريق الأزرق ، وسواء فاز هذا أم ذاك ، فلا ينام نِدّه إلا على الحقد والوِتر ، وقد يبلغ بالفريقين التنافس إلى الصّراع والجِلاد ، وإذكاء الحزازات في الصّدور . فكم تمنّى أن يهدى الله المتنافسين فيعلموا أنهم أبناء أمّة واحدة ، ولكن هيهات . . .

ولا يزال الأمير « جستنيان » منصرفاً إلى تجواله يوماً بعد يوم ، حتى ينتهي به المطاف إلى تَلٍّ مرتفع قامت عليه كنيسة صغيرة جميلة ، بناها الإمبراطور « قسطنطين » وسمّاها « آيا صوفيا » أى كنيسة الحكمة ، فيدخلها الأمير ، ويقضى فيها بعض الوقت خاشعاً متعبّداً ، ويخرج منها وفي نفسه لو استطاع أن يشيّد هو أيضاً بيتاً من بيوت الله .

فإذا تمشى الأمير يوماً فى غرب المدينة ، وذَرَعَ ضِفاف « القرن الذهبى » ذلك اللسان من الماء الممتد بين الأحياء والتلال ، لم يمنعه جمال تلك البقعة من أن يثير فى نفسه الشفقة والرثاء .

فى ذلك الجانب من المدينة ، جثَم الفقر والشرّ بين الأزقّة الضيقة الملتوبة ، وقامت أسواق البيع والشراء ، تؤمها الطبقة الفقيرة ، ويتخذها المتسوّلون والعاطلون مسرحاً لنشاطهم ومعاشهم ، ويقصدها تجّار الرقيق لشراء ما تجلبه الحروب من الأسيرات والسّبايا ، أميرات كن أم من السوقة ، يتزايد التجار عليهن ، ويدفعون فيهن أغلى الأثمان إذا كانت السبيّة المبيعة أميرةً ذات خطَر أوصبيّة ذات دلٍّ وجمال .

وكم شهد الأمير من صفقات النخاسة ، فعافتها نفسه الأبيّة المرهفة الإحساس ، وثارت على تلك الأوضاع التى تجعل من الإنسان سِلْعة تباع وتشترى ، ومتاعاً لا روح له ولا رأى ، فإذا لم يُعْتَق عاش على هامش الحياة عبداً أجيراً محروم الحقوق ، وماذا يستطيع الأمير وسَنَنُ ذلك النظام منحدر إلى أمته من الأمم الأخرى الآخذة به منذ أقدم العصور ، فليس له إلا أن يستسلم لذلك النظام ويرضى به غضبانَ أسفاً .

ولطالما جال الأمير فى أسواق البيع والشراء ، ورأى الناس متزاحمين عليها ، وكلهم جائع فقير يتردّى الأسمال والخَلَقَ من الثياب ، ولا يتورّع أن يخاصم زميلاً له فى سبيل تمرةٍ جافّة ، أو كِسْرة خبز ، فعجب كيف يغرق جانب من المدينة فى الثراء الفاحش ، ويحار الغِنَى والبطر ، وتخيّم

على الجانب الآخر ضروبُ المذلّة والفقر المُدْقع بحيث يكثر العاطلون والمتسوّلون وتكثر بينهم دواعي السرقة والسّطْو والشّجار .

ومن خصائص ذلك الجانب من المدينة ، أن انتشرت فيه الحانات وأماكن اللهو والرقص والتمثيل . وكانت الطبقة الراقية لا تقصد تلك الأحياء إلا استمتاعاً بتلك الفنون . يهبطون إليها فى أول الليل ، و يرجعون عنها فى آخره . إمّا سُكارى الرّاح . و إمّا نشاوى المتعة والفن بما يَحْسُونه من شراب ، أو يشاهدونه من رقص أو تمثيل مضحك ساخر ، ولكن بعض الشباب العاطل من تلك الطبقة الراقية . كانوا يتبذّلون فى تلك الأحياء . و يتدنَّوْن إلى مقام السِّفْلَة والأوغاد . فينقضُّون فى الظلام الحالك على النساء ، و يسلبونهنّ الحلى والجواهر ، و يعودون عنهن فائزين غانمين ، فما من راقصة ولا ممثّلة ، كانت تجرؤ أن تسير فى الليل وحدها ، خوفاً من هؤلاء الشياطين الذين يُعدُّون فى النبلاء وما هم بنبلاء ، اللهم إلا إذا صَحِب تلك الممثلة أو الراقصة متسوّلٌ أو أكثر من أصدقائها ليحموها من زبانية الليل البهيم .

كان الأمير « جستنيان » يعرف كل هذا فيضيق به ذَرْعاً وتثور له نفسه ، فكم من مرّة حدّث فيه محافظ المدينة ، فوعده هذا بالضَّرب على أيدى العابثين ، وأخْذِهم بطائلة القانون أخْذَ عزيزٍ مقتدر ، ولكن الأمير ما كان يعلم أن محافظ المدينة يعمل وفق أهوائه ومطامحه ، وأنه يتغاضى عن ذلك العَبَث و يتجاهله فى أكثر الأحيان ، ليوسّع شُقّة الخلاف بين الشعب والنبلاء ، وليغرس بذور الفتنة فى نفوس الشعب المسكين المغلوب على أمره ،

فيعصى ويتمرّد ، ويثور ثورته الجامحة ، فيجنى هو وحده ثمرة تلك الثورة فيعصف بالإمبراطور وابن أخيه ، ويستوى على عرش « بيزنطة » وحيداً مطلق السُّلطان ، ثم يتركه لأبنائه وأحفاده من بعده .

أنّى للأمير أن يعلم بهذه المطامح ، وهو غريب عن أزمّة الحكم ومقاليد الأمور ، فإذا استغرب يوماً من لين المحافظ وهوادته ، التمس له المعاذير ، وانطوى على نفسه مسوّغاً أعمال المحافظ ، راجياً أن يكون يوم الإصلاح غير بعيد ، ثم يعود إلى أيامه الرتيبة يقضيها على النحو الذى تعوّده ، فإذا أهاب به الشباب والفَراغ ، ارتاد مسارح الرقص والتمثيل ، فضحك مع الجمهور للنكتة البارعة ، والحوار اللطيف ، والمواقف الغريبة ، ونَعِمَ كما ينعم غيره برؤية أسراب الفتيات يرقصن على إيقاع الموسيقى ، ودقّات الطبول وضرب الصُّنوج .

وجَنّتْ به مُتَعِ اللهو ، فأكثر من التردُّد على مسرح بعينه كان قِبْلة المتفرجين ، يغصُّ بهم كل ليلة فلا يبقى فيه موضعٌ لِقَدم ، فقد ظفر ذلك المسرح براقصة ولا كالراقصات ، هزت شباب القسطنطينية هزًّا عنيفاً ، وأصبحت شُغْلَهم الشّاغل ، وموضوعَ أحاديثهم فى الأندية والمجالس ، حتى غارت منها النّساء مَغِيظاتٍ مُحْنَقات ، وأضمرن لها الحقد والكره والبغضاء .

كانت تلك الراقصة فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها الرّيِّق الريّان ، على جانب عظيم من الجمال الرائع الفاتن ، يتجلّى فى صِباها المشرق النّضر

وعودها الرَّخص الأملد ، كما يتجلَّى فى شعرها الطويل الفاحم، و بَشَرتها السمراء الحلوة، وعينيها السَّوْداوين الدَّعجاوين، تتَّقدان بنور الذكاء بل بنور الفتنة والإغراء، هذا إلى مُحيَّا جميل القَسَمات، وفمٍ دقيق، وشفتين قرمزيَّتين رقيقتين، ترمزان إلى الشهوة الصارخة، أو تنمّان عن أقوى نوازع الحب والكراهية. فإذا علت تلك الآية الفريدة المسرح، وبدت صُوَرُ حسنها للناظرين استقبلها الجمهور بعاصفةٍ من التصفيق ارتجّت لها أركان المكان، وإذا سمع أغانيها، وشنّف آذانه بصوتها الساحر ونغماتها الرخيمة بلغ به الطرب كل مبلغ، فهلّل وكبّر مدهوشاً طروباً، وإذا رآها بعد ذلك وقد نضَتْ غلالاتها الفضفاضة وبدأت تتلوّى تلوِّيَ الأفعوان، بجسد تغلى فيه نار الشباب ونار العزم، وتُخْضعه لحركاتٍ منظَّمة، وإشارات متموِّجة، أو رآها واثبةً من مكانٍ إلى مكان، نافرةً فى أطراف المسرح نُفُورَ الظَّبى الأعْصم، جافلةً عبوساً أو متلفِّتةً متبسِّمة، جُنَّ جنون أولئك المتفرّجين، وقاموا وقعدوا، وأمطروها بالورد والرَّيحان وبكلمات الإعجاب والثناء، ويبقى هذا دَيدَنهم حتى ينتهى الحفل، وينفَضّ السامر، وينْصَرف الناس على قسَمٍ فيما بينهم وبين أنفسهم ليعودُنّ إلى هذا النّعيم فى الليلة القابلة.

كانت هذه الراقصة الحسناء العجيبة تسمى « تيودورا ».

٢

ما برحت « تيودورا » تنتقل من نجاح إلى نجاح في ذلك المسرح الذي تعمل فيه ، حتى ملأت الدنيا وشغلت الناس ، وانهالت عليها موارد الثروة فأصابت منها نصيباً كبيراً استطاعت معه أن تتأنق في ملبسها ، وتختار من الثياب أفخرها وأغلاها ، ترتديه في ذوق بارع ، وكياسة تحسدها عليها علية النساء ، واستطاعت كذلك أن تقتني اللآلئ والجواهر ، تتزين بها وتتحلى ، إبرازاً لجمالها ، وإشباعاً لنفسها الظمأى إلى الثراء العريض وفاخر الحلي .

لو كانت « تيودورا » ذات نفس كنفوس أوساط الناس ، لعاشت راضيةً مغتبطة ، تنال من مباهج الحياة أوفر قسط تصل إليه يدها ،

وتحيا حياة النعمة والترف ، وفى يدها المال والشباب ، ومن حولها فتيان القسطنطينية، وكلهم يتمنى أن تُقَرِّبه منها، وتسعده بمودتها وصداقتها ، ولكن كان فى قرارة نفس تلك الفتاة اللعوب ، والراقصة الحسناء ، رواسبُ أليمة أذكَتْ فيها النقمة على الناس، والثورة على أنظمة الحياة البيزنطية .

لم تَنْسَ « تيودورا »قطُّ أنها قدمت إلى القسطنطينية مع أبيها وأمها ، وهم على أسوأ حال من شظف العيش والفقر والمسكنة، ولم تَنْسَ أنها جاءت إلى تلك المدينة مع أبويها ، وسنها لم تتجاوز السادسة، وأنها قضت نحواً من عشر سنوات فريسة الجوع والحرمان والآلام .

بقى أبوها فترةً من الزمن عاطلاً عن العمل، إلى أن وُفِّق فى آخر الأمر أن يشغل وظيفة مروِّضٍ للدِّبَبة فى حظيرة الوحوش الضارية، فوقته تلك الوظيفة ووقت أسرته معه من مخالبِ الجوع ليس إلا . . . حتى رماه يوماً طالعه السيئ النكد فى أشداق دبٍّ مفترس ، فكتم أنفاسه ، ودقَّ عظامه ، وتركه جثة هامدة .

أجل لم تَنْسَ« تيودورا »هذه الفاجعة النكباء، ولا نسيت أنها عادت وأمها من بعد موت أبيها إلى الجوع والفاقة ، ترقدان على الطوى ، وتصبحان على أشدّ أوجاع النفس والجسد ، ولا غاب عن ذهن هذه الفتاة الحسَّاسة أن أمها وقد تألَّبت الأدواء والعلل عليها كانت أعْجَزَ من أن تستطيع مزاولة عملٍ من الأعمال ، فدفعت بها إلى الحانات ، وكان صباها قد بدأ يتفتح ، فعملت فيها خادمة حيناً ، ومهرجة أحياناً دون كبير نجاح ،

ثم ما عتم داء السل أن اشتدت وطأته على أمها فأنقذها الموت من عذابها الأليم، وحياتها المبرحة، ونهضت «تيودورا» بعدها تكافح فى سبيل العيش وحيدة منفردة، لا تأبى أن تعتمد على جمالها فى سبيل الرزق وسد الرمق، حتى ألهمتها نفسها أن تحترف الرقص والتمثيل والغناء، وساعدها الأنصار على الوصول إلى ذلك المسرح منذ نحو عام واحد، فنقلها من الخصاصة والمذلة إلى الشهرة والغنى.

رسبت كل هذه الأمور فى جوانح الفتاة، فطبعتها على بغض الزمان وأهله، وازداد ذلك البغض تمكناً من نفسها وثباتاً، لما أدركت أن المال لن يجلب السعادة لفتاة من العوام مثلها، تقيدها قوانين المجتمع بالأصفاد والأغلال.

هذه الفتاة الراقصة، كان من أقصى أمانيها أن تحيا حياة كريمة مع زوج تخلص له ويخلص لها، غير أن نفسها الكبيرة الطموح، لم تكن لترضى بزوج لا ينتمى إلى الطبقة الراقية، ولا يشغل أحد المناصب الرفيعة فى الدولة، وكان من الميسور عليها أن تجد ذلك الزوج فى رجال الطبقة الأثيرة العالية، ممن يحومون حولها ويشغفون بجمالها، ولكن هيهات فالممثلة أو الراقصة يضعها القانون البيزنطى فى أسفل درك من بنى الإنسان، ويمنع كل نبيل أو كبير مقام من أن يتزوجها، فلا أقل إذن من الثورة على ظلم القانون، ولا أقل إذن من الحقد على الناس.

ولقد كانت «تيودورا» تعلم علم اليقين أن الكبراء الذين يخصونها

بالثناء والإعجاب ، و يمحضونها الود ، و يسعَوْن إلى التقرُّب منها ، لايفكرون أبداً في أن يتخذها واحد منهم حليلة كريمة ، ما دام القانون يقف سدًّا منيعاً دون ذلك .

وكان بين هؤلاء الطامعين الطامحين حاكم برقة ، فقد جاء إلى القسطنطينية يستشير ولاة الأمور في بعض شئون الدولة ، فساقته المقادير إلى المسرح الذى تعمل فيه « تيودورا » فأعجب بها وأغْرم ، وطلب إليها أن تصحبه إلى برقة وتعيش في قصره عزيزة الجانب محفوفة بالرعاية والتكريم.

وكان بين هؤلاء الطامعين الطامحين أيضاً محافظ المدينة « حنا القبدوكى » فمنّاها بأن ينقلها من المسرح إلى قصر عظيم يبنيه لها في شرق المدينة ، و يغمرها بالتحف والهدايا فوق ما ترجو وتؤمِّل .

ولكن الفتاة الصغيرة السنّ الكبيرة الفؤاد ، ردت هذا وذاك عن نيل مبتغاهما ردًّا رفيقاً ، لا لأنها وجدت في حاكم برقة فتى غرًّا معتدًّا بوسامته وغناه ، وتلك حال البُلْه من الرجال ، ولا لأنها أنِفَت من دمامة محافظ المدينة وغلظه وكبريائه ، بل لأن نفسها كانت أكبر مطمحاً وأبعد غاية ، فإن كان لا بدّ أن تقنع برتبة الخليلة ، فلماذا لا يكون ذلك الخليل أكبر كبير في الدولة ؟ ولماذا لا يكون الأمير « جستنيان » ابن أخى الإمبراطور ووارث عرشه ؟ فلها من شبابه وقسامته ورفيع مقامه ومستقبله الأزهر ، ما يجعل منه الضالّة المنشودة ، ولا سيّما أن الأمير كثير الاختلاف إلى مسرحها ، يكاد يلتهمها بنظراته كلما ظهرت على المسرح راقصةً أو ممثلة

أو شادية ، فأدركت بإحساس المرأة الذى لا يخطىء ، أن وراء تلك النظرات قلباً عاشقاً مستهاماً، يلجم عاطفة الحب كِبْراً وترفُّعاً، ولا يبين إلا عن عاطفة الثناء والإعجاب .

عادت « تيودورا » ذات ليلة إلى منزلها بعد أن فرغت من عملها فى المسرح ، وساءها أن لا تلقى عند الباب الخلفى للمسرح ، الشيخ « أنسطاس » زعيم الشحاذين وقد تعود أن يحرسها كل ليلة ، ويحميها من خطر الطريق . وزعيم الشحاذين هذا شيخ أعرجُ طاعنٌ فى السنّ ، ولكنه ذو قوّة بدنية خارقة تلوى الحديد وتحطم الصخر ، فالويل لمن يقع تحت قبضته أو يكون فى متناول عصاه الطويلة الغليظة .

عرفت « تيودورا » هذا الزعيم منذ أن كانت صبيّة تتردّد على الحانات ، فوقاها الغوائل شفيقاً بها مشفقاً عليها ، شأن الوالد الحنون ، فاحتفظت له فى قلبها بذلك الجميل ، وأضمرت له الودّ والبِرّ ، ولما أقبلت الدنيا عليها شاءت أن تجزيه ببعض المال فنَهَرها فى رفق وحنان، وأبى أن يتناول على رعايته لها جزاءً ولا شكوراً .

وبينا هى تتفقّده فى تلك الليلة بعد خروجها من المسرح ، تقدم منها ثلاثة من الشحّاذين، وأنهَوا إليها أن زعيمهم مشغول فى تلك الليلة بأمر طارئ ، وأنه عهد إليهم فى حراستها حتى منزلها . فشكرتهم على مروءتهم، وحَمَّلتهم إليه أطيب التحية، وسارت فى صحبتهم إلى أن بلغت المنزل ، فودّعتهم شاكرة ، ودخلت دارها وأحكمت مِزْلاج الباب، وهى نَهْبٌ

للوساوس والهواجس خوفاً من أن يكون قد انتاب صديقها « أنسطاس » مكروهٌ من المكاره .

وما هو أن تشعر خادمتها « تينا » بمقدمها حتى تخفّ إليها محيّية مستقبلة ، وتخف معها « أنطونينا » صديقة « تيودورا » الصَّدوق ورفيقتها منذ عهد الحداثة، عهد البؤس والشقاء ، وكانت « تيودورا » حينما ابتسم لها الدهر قد طلبت إليها أن تنزل ضيفة عليها تقاسمها المسكن ونعيم الحياة .

أقبلت « أنطونينا » على « تيودورا » تقبلها وتغمرها بعطفها وودّها ، فى حين وقفت الخادمة « تينا » على مقربة منهما رهن إشارةٍ من سيدتها ، فقالت « تيودورا » وهى متوجهة إلى غرفة نومها :

ــ « تعالى يا " تينا " وساعدينى على خلع ملابسى وزينتى » .

ــ « سمعاً وطاعة سيّدتى ، لعلك مسرورة بنجاحك أيضاً فى هذه الليلة ! » فقالت « تيودورا » وقد جلست إلى مرآتها :

ــ « كلّ السرور يا "تينا" خذى هذا القرط وهذه الحلى وضعيها فى عُلَبها ، ثم ناولينى المُشْط لأسرّح شعرى ، وأعِدّى لى غِلالة النوم... وخُذى هذه المشابك المحلاّة بالألماس ، إنها تُثْقِل رأسى » .

وقدمت الوصيفة المشط إلى سيدتها . وتناولت القرط والحلى وذهبت تضعها فى عُلبها ، وتُعِدّ ما أمرتها به سيّدتها : فقالت « أنطونينا » بعد إذ جلست قرب صديقتها :

ــ « حدّثينى يا حبيبتى كيف كان نجاحك الليلة ؟ » فقالت

« تيودورا » وهى تمشّط شعرها الرسيل :

ـ « منقطع النظير . . . » فقالت « أنطونينا » :

ـ « وعشّاقك المتزاحمون ؟ » فقالت « تيودورا » :

ـ « كانوا كلهم هناك، فمن حاكم برقة . . . » فقاطعتها « أنطونينا » :

ـ « ألا يزال فى العاصمة ؟ » فقالت « تيودورا » :

ـ « أقبل إلىّ بعد الحفل، وأخبرنى أنه مبْحِر عند الفجر إلى بلده، وكرّر علىّ رجاءه طالباً أن أصحبه إلى برقة فاعتذرت.. . ويل أمّه من أبله! أيظنُنّى أهجر القسطنطينية لأعيش فى برقة حبّاً لسواد عينيه . . . »

ـ « " وحنّا القبدوكى " ؟ ! » فقالت « تيودورا » :

ـ « كان هناك أيضاً ، وكان هذا الوحش المفترس ينظر إلىّ نظرات غريبة ، فتارةً كنت أقرأ معانى الشهوة فى عينيه الجاحظتين ، وطوراً كنت أقرأ فيهما وفى ابتسامته الصفراء الرهيبة معانى الحقد والكراهية ، وحيناً آخر كنت أشعر ، فى تململه وحركاته ، بما فى نفسه من صراع عنيف بين رغبته فىّ وحقده علىّ . . . » فقاطعتها « أنطونينا » قائلة :

ـ « يا لك من ساحرة تقرأ ألواح القلوب ! ثم ماذا قرأت فى عينى الأمير " جستنيان " ؟ » فقالت تيودورا :

ـ « قرأت فيهما وفى قسمات وجهه المشرقة الباسمة أجمل آيات الحب، ولمحتُ كذلك فى بعض نظراته أثر الصراع فى نفسه ، أتُراه يريدنى زوجة له يا " أنطونينا " ؟ »

ـ « عَدِّى عن هذه الأحلام والأوهام يا " تيودورا " ولا يخدعنَّك جمالك وطموحك ، فتنسى من أية طبقة نحن من طبقات الناس ؛ وإلاَّ جرَّ عليك خيالك الجامح وأوهامك الكاذبة الخادعة أوخم العواقب وأفدح النكبات . . . »

فتبسَّمت « تيودورا » حزينةً كئيبة . وشعرت فى تلك الوهلة بأنها هى أيضاً تحب الأمير « جستنيان » ولكن أين الثرى من الثريّا ، فسكتت على مَضَض وطار بها الفكر كلَّ مطير ، ولم تر أن الخادمة قد جاءتها بمِبْذَلة النوم . فما رَجعها إلى نفسها إلا طرْقٌ متوالٍ على باب المنزل جزعت له النساء الثلاث ، وتطلعن إلى الباب خائفات مذعورات .

واستمرَّ الطَّرْقُ وعَنُف قليلاً ، فأهابت « تيودورا » بشجاعتها ، ونهضت إلى الباب وسارت خلفها « أنطونينا » والخادمة فى قلَقٍ ووَجَل ، ثم دوّى صوت « تيودورا » قائلاً فى حزم وثبات :

ـ « من الطارق ؟ » فسمعت النسوة الثلاث صوتاً يقول مضطرباً :

ـ « أنا " أنسطاس " يا " تيودورا " افتحى الباب فى الحال » .

فشدَّت « تيودورا » المزلاج ، وفتحت الباب ودخل منه « أنسطاس » زعيم الشحّاذين وقال وهو يخفى قلقه واضطرابه :

ـ « أنت هنا فى خطرٍ يا " تيودورا " ! » فقالت « تيودورا » هادئة :

ـ « كيف أكون فى خطرٍ وأنا فى حماية صديقى " أنسطاس " ورجاله ؟ ! » فقال زعيم الشحّاذين :

— « إن الخطر المحدق بك لا يأتيك من جانب الرّعاع من النّبلاء ، فأنا و رجالى كفيلون بهؤلاء جميعاً وقد حميناك منهم حتّى اليوم . . . »
فقالت « تيودو را » مقاطعة :

— « شكراً لك ولهم يا عز يزى " أنسطاس " . . . » فقاطعها هو قائلا :

— « لم آت تحت جُنْحِ الليل لأظفر منك بكلمات الشكر يا " تيودورا " ولا قضيت ليلى بطوله متجسّساً متسقّطاً الأخبار . . . »
فقاطعته « تيودو را » مرّة أخرى وقالت :

— « لقد دهشت لما تفقّدتك عند باب المسرح فلم أجدك . . . إن الظن لم يخطئنى عند ما توجّسْت شرًّا من ذلك الغياب ، ولكن قل لى أىّ خطر يتهدّدنى ؟ » فقال زعيم الشحّاذين :

— « تعلمين يا عز يزتى أنى و رجالى عيونُ المدينة وآذانُها ، فقد علمت ولا يرقى الشك إلى ما علمت ، أن محافظ المدينة قد أصدر الأمر باعتقالك و زجّك فى السجن رهن المحاكمة ، ولن تنجى من ظلم المحكمة التى ستحاكمك . هذا وستنقضّ عليك عند الفجر ثُلّة من رجال الشّرطة وتقتادك إلى غياهب السجن » . فقالت « تيودورا » جازعة :

— « ومن شكانى إلى المحافظ ؟ وما جريرتى ؟ » فقال زعيم الشحّاذين :

— « لم يَشْكُك أحد إليه ، و إنما هو الذى أراد أن يثأر منك على إغفالك شأنه وازدرائك به ، فأعدّ لك رهيبَ القِصاص » .

— « و بماذا يتّهمنى هذا الوغد السّافل ، وأنا لم أوذ مخلوقاً ،

ولا اجترحتُ أمراً إدا ؟ ! » فقال زعيم الشحاذين :

ــ « يتهمك أولاً بأنك لم تسجلى اسمك فى سجل المحافظة على أنك راقصة ممثلة . ويتهمك ثانياً بأنك ترتدين من أصناف الثياب وألوانها ما هو موقوفٌ على نساء الطبقة العليا ، فالقانون صريح فى هذا ، وطائلةُ العقاب محيطةٌ بك من كل جانب ومالك منها مَنْجاةٌ ولا مَهْرب » .

فقالت « تيودورا » مضطربة وقد شعرت بوطأة الخطر الداهم :

ــ « ولكنه قانون بالٍ عتيق ، أدْرِجَ فى زوايا النسيان والإهمال ، وليس من يعرف به أو يستخدمه » . فقال زعيم الشحاذين :

ــ « القانون هو القانون يا عزيزتى . فتغاضى الحكام عنه لا ينسخه ولا ينفيه ، ولقد شاء اليوم محافظ المدينة أن ينفض عن هذا السلاح غبار الزمن ، فقام يلوحه فى وجهك ويضربك به الضربة القاضية ، فالوقت ضيق فلا تضيعيه عبثاً فى الجدال ، فهيا اتبعينى إلى حيث أعددتُ لك فى بعض الأنفاق التى نتردد عليها مأوى إن يَخْلُ من الفراش الوثير ، فحسبه أنه لن يصل إليه الشرطة ، تقيمين فيه إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً » .

ــ « عفواً يا عزيزى أترانى أقوى على الحياة فى الأنفاق والسراديب متخفية متوارية ، وأنا لا تكاد الدنيا تسعنى بفضائها الواسع الرحْب ، وهوائها العاصف الخفاق ! »

وكانت صديقتها «أنطونينا» قد لزمت الصمت فى ذلك الحوار الطويل ، فلما سمعتها ترفض فى لينٍ وكياسة عَرْض الشيخ الأعرج زعيم الشحاذين ،

خافت عليها مغبةَ غرورها وعنادها ، فاشتركت فى الحديث وقالت لها :

— « أجل يا عزيزتى "تيودورا" الرأى ما قال صديقنا "أنسطاس" فاهربى من وجه العاصفة قبل أن تطوّح بك فى المهاوى ، فلعل يوم الفرج قريب . . . »

أما الخادمة فكانت واقفة على مقربة من سيدتها وقفة التمثال الجامد لا تريم ولا تتحرك ، فاندفعت فجأة تقول وهى باكية منتحبة :

— « نعم يا سيدتى فانجى بنفسك والله يحرسك فى رعاية صديقك الهُمام ورجاله » .

فضاقت « تيودورا » ذرعاً ببكاء خادمتها ونصيحة صديقتها . وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وهى حانقة مُغْضَبة مفكرة ، ثم توقفت ومضت إلى مِنْضَدة ، وأخذت منها ورقة بيضاء وكتبت عليها بضع كلمات ، ثم أقبلت على « أنسطاس » وقالت :

— « أشكرك يا صديقى على دعوتك ، بل على مروءتك ونبلك ، واعذرْنى إن أنا أبيتُ أن أتبعك ، ولكن لى عندك مطلباً أرجو أن لا يخيب فهل لك أن توصل هذه الرسالة إلى حاكم برقة ؟ إنه الآن فى السفينة التى ستبحر به عند الفجر » . فقال الشيخ وتكاد العبرة تخنقه :

— « حباً وكرامة يا عزيزتى . إن أبواب المدينة مقفلة فى هذه الساعة ، ولكننى سأذلل جميع الصعاب ، بل سأركب السحاب وأوصل هذه الرسالة إلى صاحبها ، فثقى بى وليكن ما شئت » .

٣

جلس الأمير « جستنيان » ذات صباح إلى مكتبه فى قصره الخاص ، يراجع مئات الرسائل والتقارير ، ويذيلها بتوقيعاته ، ويصرف ما تثيره من شئون الدولة ومشكلاتها ، فقد رضى عمه الإمبراطور بعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وناء كاهله بأعباء الملك والسلطان ، أن يشركه فى الحكم وتسيير الأمور وَفْقَ مصلحة الدولة .

وكان الأمير فى ذلك الصباح كثير البَرَم والنزَق ، لا يفتأ يعنف حجابه ومعاونيه من دون ما سبب ، وكان إذا أدركه الملل من القراءة والتعقيب على مطالب الرسائل ومحتوى التقارير ، استلقى بظهره إلى مسند مقعده ، وغاص فى بحار من التأمل والتفكير .

وفيم كان يفكر ؟ إنه كان يفكر ولا ينقطع عن التفكير ليل نهار فى « تيودورا » الحسناء التى أسرت لبّه وخلبت فؤاده . كان يفكر فى ذلك الطائر الجميل الذى كان فى متناول يده ثم طار عنه إلى البعيد من البلاد .

لقد أسقط فى يد الأمير لمّا عاود التّرداد على مسرح «تيودورا» بعد تلك الليلة الأخيرة التى استمتع فيها بفنّها ورشاقتها ومنظرها فلم يجدها ، وغضب أشدّ الغضب لمّا عرف أن محافظ المدينة قد أصدر أمراً باعتقالها لحاجة فى نفسه ، معتمداً فى ذلك على قانون عتيق بنى على التفرقة بين البشر ظلماً وعدواناً ، فلماذا يستأثر الأكابر بلون أو صنف بعينه من الثّياب ، ويحرم ذلك الصنف أو ذلك اللون على العامّة والدّهماء ؟

لم يستطع الأمير أن يناقش محافظ المدينة الحساب على قسوته الصارخة وثأره من فتاة مسكينة تحترف الرقص لتعيش ، فما كان يليق بالأمير أن يجادل فى أمرٍ لا سَنَد له من القانون ، وخصوصاً عندما علم أن الفتاة استنجدت بحاكم برقة وسافرت معه هرباً من ظلم القانون وانتقام المحافظ ، وارتمت فى كنفه خليلة له أو جارية من جواريه ، ولعلها شقيّة تاعسة فى قصر ذلك الحاكم .

عرف الأمير شيئاً عن فرار « تيودورا » وغابت عنه أشياء ، فلم يعلم من الأمر إلا ظاهره وهو رحيلها مع حاكم برقة ، أمّا كيف تمّ ذلك الرحيل وكيف اختُتِم ، فما كان يدرى عنه شيئاً . وأنّى له أن يعلم أن فى المدينة زعيماً للشحّاذين ، كانت له اليد الطولى فى تمكين « تيودورا » من الفرار .

لم يَخْفَ على «تيودورا» فى تلك الليلة العصيبة أنها معرَّضة لخطر جسيم وأنها لن تنجو من قبضة محافظ المدينة، فهو صاحب الحَوْل والطَّوْل فى العاصمة، ومشيئته هى النافذة فى كل ما يشاء و يبتغى، فلما استعرضتْ حالهَا ووزنت أمورها، وأيقنت أن ما عرضه عليها « أنسطاس » الشيخ الوفِىّ من السُّكنى مع الشحَّاذين فى الأنفاق أمرٌ لا قِبَلَ لها بتنفيذه، خطر لها أن ترحل مع حاكم برقة ، فذلك سبيلها الأوحد فى النجاة من مخالب « حنا القبدوكى » فكتبت إليه تلك الرسالة العَجْلَى، وذكرت له فيها أنها فخورة بمرافقته إلى بلده، لتكون له الأمَةَ الطيّعة، وطلبت إليه أن يرسل مع حامل رسالتها بعض رجاله ليصحبوها إلى سفينته حتّى تبحر معه عليها.

واستطاع زعيم الشحَّاذين بوسائله المشروعة وغير المشروعة أن يصل إلى السفينة ، ويَمْثُلَ بين يدى حاكم برقة ويسلمه الرسالة ، فما هى إلا بعض ساعات حتّى كانت « تيودورا » فى طريقها إلى السفينة يحرسها نَفَرٌ من رجال حاكم برقة ، وكانوا مزوَّدين منه ببطاقة المرور ، ففُتِح لهم باب المدينة القائم إلى جانب الميناء فى الذَّهاب والإياب، وبقيت « تيودورا » مرتمية ً فى مقصورتها من السفينة، باديةَ الاضطراب ، لايغمض لها جَفْن ، على ما بها من تعبٍ وإعياء ، حتّى انبلج الفجر وطلع على الكون بصفحته الوردية، وسارت السفينة تشقّ عباب الماء .

هذه الدقائق من رحيل « تيودورا » كان يجهلها الأمير « جستنيان »

كما كان يجهل أن حاكم برقة قد أصيب طول الرحلة بدوار البحر ، فلَزِم مقصورته لا يبرحها ، وأن « تيودورا » عندما ألقت السفينة مراسيها فى أحد الموانئ السورية ، أقفلت باب المقصورة على الحاكم ، وأوصت رجاله أن لا يزعجوه بأمر من الأمور ، وغادرت هى السفينة إلى المدينة ولم تعد ، فاضْطُرَّ البحارة بعد إذ طال انتظارهم لضيفة الحاكم ، أن يتابعوا الرحلة بغير « تيودورا » الجميلة .

لم يكن « جستنيان » يدرى بهذه الحوادث ، ولعله لو درى بهذا المصير الذى انتهت إليه رحلة « تيودورا » لقرَّ عيناً وعاوده الأمل فى أن يلقاها يوماً من الأيام ، ولكنه كان وهو مُسْنِد ظهره إلى مقعده ، وشاخصٌ ببصره إلى سقف الغرفة ، يفكر فى « تيودورا » تفكير مُحِبٍّ يائس باعدت الأيام بينه وبين الحبيب ، وقطعت دونه كل أمل فى اللقاء .

ثم عاد الأمير إلى أوراقه ووثائقه يدرسها ويفحصها ، ويقرِّر فى شأنها ما يقرّر ، ويستعين على البتِّ فى بعضها بمعاونيه ومستشاريه ، على علمٍ منه أنهم قوم أفسدتهم الرّشوة فأصبحوا عبيد الباطل .

ومنذ أن نهض الأمير بنصيبه من أعباء الملك ، انقطع عن الجَوَلان فى المدينة على قديم عادته ، وتفرَّغ لمهام الدولة ، وقضى فى مكتبه سحابة نهاره وشطراً كبيراً من ليله ، وعلى هذا عاد الأمير فى عصر ذلك اليوم إلى مكتبه ، واستأنف العمل وبقى يقرأ ورقة ويُجيب عن أخرى ويمزّق ثالثة ويقابل الزائرين حتى هبط الليل وشعر بالتعب فهمّ بالانصراف . ولكنه

قبل أن يغادر مكتبه نادى حاجبه الخاص فأقبل مهرولاً فقال له :

— « من بالباب من الزائرين وطلاب الحاجات ؟ » فقال الحاجب :

— « حفظ الله مولاى لم يبقَ منهم سوى فتاة جاءت منذ قليل ، وألحت على إلحاح السائل المتلهف أن أسمح لها بالمثول بين يدى مولاى ».

— « ومن تكون ؟ » فقال الحاجب :

— « لستِ أدرى يا مولاى غير أن ملابسها الخشِنة ، تدل على أنها فتاة من العامة فقيرة الحال » . فقال الأمير :

— « حسناً أدخلها ».

وتوارى الحاجب قليلا ثم عاد تتبعه فتاة تكاد تكون ملثَّمة ففَسحَ لها فى الطريق إلى سيده وانصرف .

وكان الأمير قد نهض عن مقعده ووقف فى زاوية من زوايا الحجرة ، فما شعر إلا والفتاة تجرى راكضة إلى حيث كان واقفاً ، وتركع عند قدميه وتصيح وهى منتحبة :

— « يا سيدى وأميرى حنانَك ومَرْحمتك ! »

فتَخُيِّل إلى الأمير أنه انتقل إلى عالم آخر من عوالم الخيال والأحلام، فلم يتمالك أن صاح صيحة الدهش والسرور وقال :

— « "تيودورا" ؟ ! » فقالت الفتاة :

— « نعم أنا "تيودورا" جئت أحتمى بجاهك وعدلك » .

وتضاربت العواطف فى فؤاد الأمير ، وتحيّر فى المسلك الذى يسلكه مع هذه الفتاة، أيقف منها موقفَ الأمير ولىّ عهد الإمبراطورية أم يقف

منها موقف المحب العاشق الذى ملأت هذه الفتاة قلبه وفكره وخياله ؟ يا طالما حَزِن على رحيلها ويئس من لقائها، وها هى ذى تعود إليه متضرعة جاثية ، أيستمعُ إلى نداء الإمارة والترفّع فيستقبلَها استقبال الأمير لأحد رعاياه اللاجئين إلى حِماه وكَنَفه، أم يرحّب بها ترحيب المتدلِّه الولْهان، فيضمها إلى صدره ويغمرها بقُبلاته ؟ فبقى فى حَيْرَةٍ من أمره حتى رأى نفسه قد حنا عليها، وأنهضها عن الأرض ، وأجلسها فوق مقعدٍ وجلس إزاءها وهو يقول :

— « " تيودورا " ! ما هذه الأسمال التى ترتدينها وقد عهدتُكِ متأنِّقة تؤثرين فاخر الحلل والثياب ؟ » فقالت « تيودورا » :

— « مولاى إن الملابس الفاخرة سبب نكبتى ورأس بلائى » .

— « أعرف ذلك » . فاستأنفت « تيودورا » قائلة :

— « على أن هذه الأسمال التى أرتديها ، إنما أردتُ بها التخفى حتى لا ألفت إلىّ الأنظار فى قدومى إليك يا مولاى » . فقال الأمير :

— « وكيف تركتِ برقة وحاكمها ؟ بل كيف سمح لك حاكمها بالرّحيل عنه؟ إن من تُهْديه الأقدار فتاةً مثلك لا يفرط فيها، بل يحرص عليها حرصه على أغلى كنزٍ من كنوز الأرض » .

فابتسمت « تيودورا » ابتسامة الغبطة والرضا ، وعلمت أنها لم تخطئْ فيما مضى عند ما وزنَتْ نظرات الأمير إليها وزنًا صحيحاً، فالأمير مُغْرَمٌ بها ، وهذه الرّزانة التى يتكلفها لن تثبت أمامٍ سحر عينيها ، فضمنت لنفسها البقاء فى القسطنطينية والتغلّب على عدوها اللدود، فتصنّعت هى

أيضاً الوقار والحياء ، إمعاناً فى تصيد النجاح مع ما كانت تضمره للأمير من حبٍ وإخلاص ، وقالت وهى تنظر إليه نظرات كلها حب وهُيام :

— « مولاى إن رأيك فى فتاة حقيرةٍ مثلى يملؤنى زهواً وخُيَلاء ، ويرفعنى إلى مقام الحرائر من النساء » .

فقاطعها الأمير، وما عاد يقدر على كِتْمان هواه وضَبْط عواطفه وقال لها :

— « إن حبيبة الأمير "جستنيان" لا تكون إلا من عِلْيَة القوم وحرائرِ العذارى ، فلك من حبّى مَسْحَبُ مجدٍ تنقطع دونه أكرمُ الأصول ، ولكن حدّثينى عنك فلقد غبت عن هذه الديار نحواً من عام فكيف أطقت الحياة فى برقة ؟ » فقالت « تيودورا » :

— « مولاى لم أذهب إلى برقة ولا عرفتها » .

فتهلّل وجه الأمير، وأقبل عليها يستزيدها إفصاحاً وإيضاحاً فقالت :

— « كانت وسيلتى الوحيدة إلى الهرب من ظلم محافظ المدينة ، أن أقبل الرحيل مع حاكم برقة ، ذلك الغرّ الثقيل الظلّ فأبحرت معه . . . تصوّرْ يا مولاى أنه لم يكن يفارق مقصورته فى السفينة من شدة ما أصيب به من دوار البحر » . فقهقه الأمير ضاحكاً حتى بانت نواجذه ، وضحكت معه « تيودورا » ثم قالت :

— « ولما رست السفينة فى بعض الموانئ السورية ، غافلته ولُذْت منه بالفرار ، وقضيت طول هذه المدة فى مدينة " أنطاكية " وعشت فيها متخفّية ، أنفق من بعض المال القليل الذى أخذته معى ، ومن بيع بعض

حليى وجواهرى » . فقاطعها الأمير قائلاً :

— « سأعوضك عنها خير تعويض » . فقالت « تيودورا » :

— « إن عطفك علىّ يا مولاى هو خير العِوَض. . .ثم ترامت إلىّ الأنباء أنك يا مولاى قد اضطلعتَ بقسطٍ وافر من أعباء الملك، فحزَمْتُ أمرى وأقبلت إليك متنكّرة فى هذه الأسمال . لتحمينى من ظلم المحافظ ، ومن ظلم القانون . ولتسمح لى بالبقاء فى القسطنطينية فأعود إلى مزاولة مهنتى فيها » . فقام الأمير عن مقعده مُغْضباً محتدًّا . ثم هدأت ثائرته وقال :

— « لا . لن تعودى إلى مزاولة مهنتك . . . ستبقين فى القسطنطينية . أجل . ولكن ستقيمين فى قصرى . وسأعمل على إلغاء ذلك القانون الصّارم فالبشر سواسيَة أمام الله . ويجب أن يكونوا سواسيَةً على الأرض » .

فاختلجت جوانح « تيودورا » بفرحٍ ما بعده فرح . وما كان ليدور بخلَدها أن يكون نصرها سهلاً قريباً . وأن تمكنها منه الأقدار فى مثل ذلك اليُسْر وتلك السرعة . لقد تمنّت منذ اليوم الأول الذى وقعت عينها فيه على الأمير أن تكون خليلته . بل خليلة الرجل الأول فى الدولة بعد الإمبراطور وها هى ذى تتحقّق أمنيّتها . فلتبتسم إذن للزمان . ولتستعدّ لمواجهة عدوّها الأكبر محافظ المدينة فى قوّة وشجاعة . ما دامت تستند إلى حماية الأمير ونُصْرته . فقالت للأمير :

— « إن إقامتى بقصرك يا مولاى سيُطْلق فىّ وفيك ألسنَة الحُسَّاد والأعداء ، ويعزّ علىّ يا مولاى أن أكون لك مدعاةَ مضايقَة وإزعاج ،

لقد عدت إلى القسطنطينية آملة أن أحظى برعايتك وحماك وهذا حسبى » .
ــ « أتعتقدين يا " تيودورا " أنى أحبك حباً جماً ، وأن قلبى يخفق بعد حبّ الله والوطن بحبك وهواك ؟ » فقالت « تيودورا » :
ــ « ما أرانى يا مولاى أهلاً لمثل هذه السعادة التى لا ألقاها حتى فى الأحلام » . فقال الأمير :
ــ « أقيمى إذن بقصرى على أنك خطيبتى ريثما أعد معدّات الزواج » .
وشعرت « تيودورا » عند سماعها هذا الكلام ، أن قلبها يثب من صدرها ، وأن السعادة قد حمّلتها ما لا تطيق ، فأخذت تراجع نفسها وتسائلها أفى حلم هى أم فى يقظة ، ولكنها سرعان ما تملكت رُشْدَها بعد إذْ كادت تفقده إلى غير رجعة . وقالت بعينين مغرورقتين بالدّموع :
ــ « مولاى ترفّقْ بى قليلاً ، إنك تفقدنى الرّشد والصّواب بهذه السعادة التى تغمرنى بها . . . إنه حلمٌ جميل هيهات أن تحققه الأيام . . . ألا ذكرت يامولاى أن القانون يحرّم على نبيل من النبلاء أن يتزوّج راقصة أو ممثلة ، فكيف بأمير البلاد ووارث العرش ؟ » فقال الأمير :
ــ « اطمئنى بالاً يا " تيودورا " فما خفىَ علىَّ ذلك ، ولكننى سأسعى منذ غد إلى إلغاء هذا القانون ، إن سعادتنا مرهونة بأن نكون زوجين محبّين وفيّين . فإن قام فى وجه تلك السعادة قانونٌ من القوانين فيجب أن يُحطّم ، ولا إخال عمّى الإمبراطور " جستان " إلا مجيبى إلى ما أريد فثقى بالله وبحبّى ، إن عين الله ترْعَى المحبين » .

٤

قبلت « تيودورا » دعوة الأمير « جستنيان » فحلَّت ضيفة عليه فى قصره ، هانئةً بحبِّ الأمير ، ناعمةً برعايته وحمايته ، سعيدةً بهذه النهاية التى وصلت إليها وكانت فوق ما قدَّرَتْ وتمنَّت .

ولم تكن « تيودورا » ممن يغرّهم بريق اليوم الحاضر ، فلا يحسبون للغد أدقّ الحساب ، فما كانت لتجهل أنها مُقْبِلةٌ على حوادثَ جسام ، وأنّ الأعداء سيسددون إليها السهام من كل حَدَب وصَوْب ، فقد يستطيع الأمير أن يحميها ، وقد يعجز عن تلك الحماية فلا تكون خاتمة جرأتها وتحدِّيها الأقدار إلا السّجن والعذاب ، غير أن المصير السّعيد الذى ستظفَر به لو نجحت ، حقيقٌ بأن تركب فى سبيله أسنّةَ الأخطار والأهوال .

ومضت على « تيودورا » فى قصر الأمير عدّة أيام لا تبرح غرفتها ولا ترمى بأنظارها إلى خارج القصر ، قانعة بزيارات الأمير لها بين الفَيْنة والفَيْنة يتناولان معاً طعام الغداء ، ثم يتعشّيان كذلك معاً ويقضيان الليل فى حديث وسمر ، ويبثُّ كلٌّ صاحبه خوالج الهوى والصّبابة . ويدرس معه خطة السير إلى الهدف المنشود .

ولقد كان فى عَزْم الأمير ، منذ صباح اليوم الذى طلع عليه بعد لقاء « تيودورا » أن يفاتح الإمبراطور بأمرِ « تيودورا » وأمرِه ، وأن يستأذنه فى تزوّجها ، وأن يرجو منه إلغاء ذلك القانون الذى يفرّق بين طبقات الشعب ، ويحرّم على النبيل والعظيم أن يتزوج راقصة أو ممثلة . ولكن « تيودورا » استمهلته قليلاً حتى يعرفا من أين تهبّ الريح . فيستطيعا مواجهتها بالخطة المثلى والتدبير الحكيم .

ومرّت أيام أخرى تعوّدت «تيودورا» بعدها حياة القصور ، وأصبحت لا تجد نفسها غريبة فى قصر الأمير . فبدأت تخرج من غرفتها . وتُعْنى بشئون القصر ، وتأمر وتنهى ، وتغيّر فى أوضاع الرياش والأثاث فى الحُجَر والأبهاء ، وتشرف على إعداد ألوان الطعام . وتؤثر ما يحب الأمير منها وما يشتهى .

ولم تقتصر على هذا بل تعدته إلى طرد جميع الخدم والحَشَم ، والوصفاء والأمناء ، واستبدلت بهم غيرهم ، وخصّت نفسها بوصيفة مخلصة هى صديقتها القديمة « أنطونينا » وبخادمة وفيّة هى خادمتها القديمة « تينا »

وبحاجب أمين اختاره لها « أنسطاس » زعيم الشحاذين ليكون رسولها إليه ورسوله إليها .

وكانت « تيودورا » عندما عادت إلى القسطنطينية متخفّية ، قد عرّجت على صديقتها وخادمتها فاستقبلتاها أولاً بالدهش والخوف عليها ، وبدموع الفرح والبِشر ثانياً ، ثم قصت عليهما قصتها منذ تركتهما فى تلك الليلة العصيبة حتى تلك الساعة التى لقيتهما فيها ، وأطلعتهما على أنها تنوى مقابلة الأمير « جستنيان» والاستنجاد به ، فنفسها تحدثها أنها ستظفر منه بالعون الثمين .

وسُرْعان ما وقف زعيم الشحاذين على جليّة الأمر ، فخفّ إلى لقاء « تيودورا » فرحاً مسروراً ، حتى لقد نسى أو تناسى ما تتعرض له الفتاة من خطرٍ جسيم ، فكان هو الذى أوصلها إلى قصر الأمير وسهل لها بمن يعرف من خدم وحرس فى القصر سبيل اللقاء ، وبقى يرود حول القصر حتى الفجر ، فعلم أنها نامت فيه ، ووقف من شأن « تيودورا » على ما أراد أن يقف عليه ، فطار يخبر به صديقتها وخادمتها ، وهو مدهوشٌ من ذكاء هذه الفتاة الصغيرة ، معجبٌ بقوّة عزمها وشجاعتها ، ثم ازداد بها دهشةً وإعجاباً عند ما رآها تتصرّف فى ذلك القصر تصرُّف الحاكم المطلق تنهى وتأمر ، وتعزل وتولّى ، غير أنه كان إلى ذلك تساوره عليها الوساوس والمخاوف .

وذاع أمر « تيودورا » فى المدينة وشاع ، وملأ الأسماع ، وأصبح حديث

الأندية والمجالس والأسواق ، وأفاض الناس فى الكلام على أن الأمير «جستنيان» قد استضاف فى قصره خليلة من الخلائل، ولكنهم جهلوا من هى ومن أية طبقة تكون، ذلك أنهم لم يروها قط خارج القصر ، ليعرفها العارفون أو يتقصى شأنها المتطفلون وأصحاب الفضول .

ولشد ما تميز «حنا القبدوكى» غيظاً وحنقاً يوم جاءته الجواسيس بالخبر اليقين ، وقالت له إن خليلة الأمير إن هى إلا «تيودورا» الراقصة، غير أن غضبه المتفجر لم يدم طويلاً، فقد حلت محله غبطة راضية، ومنى نفسه بالانتقام من هذه الفتاة التى احتقرته وازدرته فيما مضى، وسخرت منه بفرارها من وجه رجاله ، والسفر مع حاكم برقة ، وكثيراً ما ساءل نفسه كيف تركها حاكم برقة تغادر الديار ؟ اللهم إلا أن يكون قد سئم عشرتها ، أو أن تكون قد دبرت له بعض المكايد ، فهربت ناجية بنفسها ، أو أنه أوفدها إلى الأمير فى بعض الشئون ، ونزل له عنها تزلفاً وقربى .

ومنى محافظ المدينة كذلك نفسه بأن يستفيد من زلة الأمير ويستخدمها فى تحقيق أطماعه، فأطلق أعوانه وجواسيسه يكيلون للأمير المثالب والمطاعن، ويثيرون عليه النفوس فى جواء الخاصة وحلقات العامة، ورأى من محكم التدبير أيضاً أن يثير على الأمير حفيظة الإمبراطور والإمبراطورة، فلو تم له ذلك لخلا له الجو، وسار إلى العرش بعد قليل مؤيداً مظفراً ، ولاجتمع له فى بلوغ ذلك الهدف حرس المدينة وجماعة النبلاء وطبقات الشعب ، أما الجيش فمشغول بمحاربة الفرس ، ولن يعجز عن كسب ثقة

« بلساريوس » أمير الجيوش عند ما يرى هذا أن الأمّة بأسرها قد تخلت عن الأمير ، والتفّت حول محافظ العاصمة .

كان « حنا القبدوكى » يردّد هذه المعانى والآمال فى ذهنه ويقول لنفسه لمَ لا أغتصب العرش ؟ ألم يغتصبه هذا الجالس عليه ويتبوّأه وهو فى الثامنة والستين من عمره ؟ فإن كنت أنتمى إلى أسرة من الفلاّحين فهو كذلك فلاّح . وابن أخيه فلاحٌ مثله ؛ ومتى كان العرش وقفاً على سُلالات الآلهة والملوك ؟ فضلاً عن أنه لا وراثة فى العرش ، فاختيار الإمبراطور ابن أخيه وارثاً للعرش حجة سهلة الدّحض والتحطيم .

قرّ قرار « حنا القبدوكى » فى صباح يوم من الأيام أن ينفث سُمّه فى سَمْع الإمبراطور . ويذْكى غضبه ومَوجدته على ابن أخيه . وبينما كان فى طريقه إلى القصر الإمبراطورى . تراءى له الإمبراطور شيخاً هِمّاً فانياً ، خائر القوى ضعيف الأعصاب ؛ واهن العزم والإرادة ، فأيقن أنه لن يفوز منه بطائل ؛ وتراءت له الإمبراطورة كذلك عجوزاً شمطاء ، مثقلة بالعلل والأدواء ، ولكنه كان يعرف فيها التزمُّت فى كل ما يمس الأخلاق وقوانين الطبقات ، فآثر أن يُوغِر صدرها أولاً على الأمير ، ويستفزّ منها القسوة والصرامة .

ما كاد « حنا القبدوكى » يصل إلى القصر الإمبراطورى حتى طلب من حاجب الإمبراطورة أن يحظى بمقابلة عاجلة فى الحال ؛ فسمحت له الإمبراطورة بتلك المقابلة ، يحدوها الفضول إلى معرفة السّبب ، أكثر مما

يعنيها الاطّلاع على أحوال الدولة، فقد استقر فى نفسها أن هذه الزيارة لا تتعلق حتماً بأمرٍ من أمور الدولة ، فهناك الإمبراطور ، وهناك ابن أخيه الأمير « جستنيان » الناهض الآن بأعباء الملك ، وكلاهما المرجع الذى يُعين محافظ المدينة على التماس الحلول للعويص المعقّد من المشكلات ، فسبب الزيارة إذن أمرٌ يهمّها أو يختصّ بها ، فأذنت لمحافظ المدينة فى المثول بين يديها ، وأخذت تنتظره على أحرّ من الجمر ، وهى تصلح من شأنها وزينتها ، على ما بها من ذُبول الغُصْن وتجاعيد الشيخوخة .

وفتح الحاجبُ الباب ، وأعلن قدوم المحافظ ، فاستوت فى مقعدها ، وطبعت على وجهها سيماء العظمة والجلال ، وردّت على تحية المحافظ وركوعه عند قدميها بإشارةٍ من يدها إلى أحد المقاعد احتوت كلّ معانى الصبر النافذ ، ثم بادرته قائلة :

— « ما الذى جاء بك إلينا فى مثل هذا الصباح الباكر ؟ لعل الدولة فى أمن وسلامة ! » فقال المحافظ وقد تصنّع الخطر والقلق :

— « مولاتى يا صاحبة الجلالة يعز علىّ أن أرفع إلى مقامك الجليل أن الإمبراطورية فى خطر ! »

فوثبت الإمبراطورة عن مجلسها جازعة خائفة ، ونهض هو عن مجلسه إجلالاً لها ، ثم عادت إلى مقعدها فعاد ، وصاحت به تقول :

— « أتختارنى أنا لمثل هذا النبأ الفظيع؟ هل أبلغتَ الإمبراطور ؟ هل أبلغت الأمير "جستنيان" ؟ . . . ثم كيف تكون الإمبراطورية فى

خطر ، وجيوشنا فى الخارج مظفَّرَة منصورة، والأمن فى الداخل مستتبٌ مبسوط الجناح ؟ ! » فقال المحافظ فى أسف ظاهر :

— « مولاتى يا صاحبة الجلالة إنى أعنِى ما أقول ، فالإمبراطورية فى خطر ولن ينقذها من الكارثة المحيقة بها سواك » . فقالت مستطلعة متضايقة :

— « تكَلَّم . أفصح . أطلِعْنى على مكامن الخطر » . فقال المحافظ :

— « إن هذا المجد الأثيل الذى بناه مولاى زوجك الإمبراطور العظيم ، يكاد يهده الأمير " جستنيان " » .

احتقن وجه الإمبراطورة عند سماعها هذا الكلام ، وارتجفت أعصابها وانتابتها نوبةٌ من السُّعال الحادّ ظن المحافظ أنها ستلفظ معه أنفاسها ، فهمّ بأن يصيح مستغيثاً ، فوقفته واستعادت هدوءها بعد نوبة السُّعال وقالت :

— « وهكذا يبغى الأمير " جستنيان " أن يتعجَّل الزمن ويرتقى درجات العرش ، فى حين لا يزال الإمبراطور حيًّا يُرْزق! » فقال المحافظ :

— « كلاّ يا مولاتى صاحبة الجلالة ! فالأمير يجنى على نفسه وعلى الإمبراطور وعليك معاً » . وضاقت الإمبراطورة ذرعاً فى تفسير هذه الألغاز والأحاجى ، فصاحت مُغْضَبة :

— « وكيف يجنى الأمير على نفسه وعلينا. هات . أوضِحْ . تكلم . أسرع » فقال المحافظ :

— « إن الشعب يا صاحبة الجلالة قد أخذ يتململ من تصرُّف الأمير ويتبرَّم به ، وهذا التململ قد تجاوز فئة النّبلاء إلى طبقات الشعب » . فقاطعته قائلة :

— « لم أسمعْ من نبيل من النبلاء أى مطعن فى تصرف الأمير فكلهم مجمعون على مقدرته وكفايته وكياسته فيما يرى من رأى ، أو يصدر من أوامر » . فقال المحافظ :

— « مولاتى صاحبة الجلالة ! إنك حامية مكارم الأخلاق فى هذا البلد ، وراعية القانون فيه ، والخطر الذى يهدّد العرش منبعثٌ من ازدراء الأمير لقانون الطبقات والعَبَث به ، أفيرضيكِ أن يحمى الأمير راقصة من الطبقة الدنْيا ، ويزين لها أن تخرق قانون الأزياء وأصناف الثياب ؟ »

فقالت الإمبراطورة مُحْنقة غَضْبى :

— « ويله أفعَل هذا ؟ ! » فقال المحافظ :

— « نعم يا مولاتى صاحبة الجلالة » . فقالت الإمبراطورة :

— « أوَ تلبس هذه الراقصة الدنيّة الحرير والمخمل مثلما ألبس أنا؟! »

— « نعم يا صاحبة الجلالة، إنها ترتدى مثل ما ترتدين صَنْفاً ولوناً وزيّاً » . فقالت الإمبراطورة وقد بلغ الغضب بها كل مبلغ :

— « يا للعار ويا للشنار ! أيضعنى الأمير مع الراقصات فى مستوى واحد ؟ ! يا للجريمة الشّنْعاء ! ولكن، ألستَ منفّذ القانون؟ فكيف تترك هذه الراقصة الخسيسة تعبث بكرامتى وكرامة كل امرأة نبيلة شريفة ؟ ! »

فقال المحافظ فى خنوع وخضوع :

— « إنها خليلته يا صاحبة الجلالة » . فقالت الإمبراطورة ثائرة حانقة :

— « أمكتوب على جبين هذه الراقصة أنها خليلة الأمير ؟ أئذا ألقيت

القبض عليها فى عقر دارها ، أو فى زقاق من الأزقة ، وأخذتها بطائلة القانون لانتهاكها حرمة الأزياء والثياب ، و زججت بها فى أعماق السجون فهل يشفع لها أنها خليلة أمير؟ ثم ما يدريك أنها خليلته ؟ ! » فقال المحافظ :

— « مولاتى صاحبة الجلالة ، إن الأمير أسكن هذه الفتاة فى قصره ، فكيف تريدين أن ألقى القبض على فتاة أنزلها الأمير فى كنفه وحماه ؟ » فقالت الإمبراطورة ذاهلة مدهوشة :

— « قلت لى إنها راقصة . . . » فقال المحافظ :

— « بل إنها من بنات الهوى » . فقالت الإمبراطورة وهى فى أشد السخط والغضب :

— « أبنتٌ من بنات الهوى تسكن فى قصر الأمير وتلبس مثل ملابسى ؟ ! يا للخزى ويا للعار ! ! ثم يحميها الأمير دون القصاص والعقاب ؟ ! يا للجرم الفظيع ! ! » فقال المحافظ :

— « وأفظعُ من هذا ياسيدتى ومولاتى صاحبة الجلالة أنها تستخدم السحر فى الاستحواذ على لُبّ الأمير وعقله ، فقد انتهى إلى أنه أصبح لا يفكر إلا بتفكيرها ، ولا يرى إلا بعينيها ، ولا ينتصح إلا بنصحها ، حتى فى المهم الخطير من شئون الدولة » . فقالت الإمبراطورة :

— « شكراً لك أيها المحافظ الساهر العين ، النافذ البصيرة ، المخلص للعرش كلّ الإخلاص ، سأنقل إلى الإمبراطور حديثك كله ، وسأبصره بمواطن الخطر ، وسأطلب إليه أن يأمر الأمير بطرد هذه الفاجرة من قصره

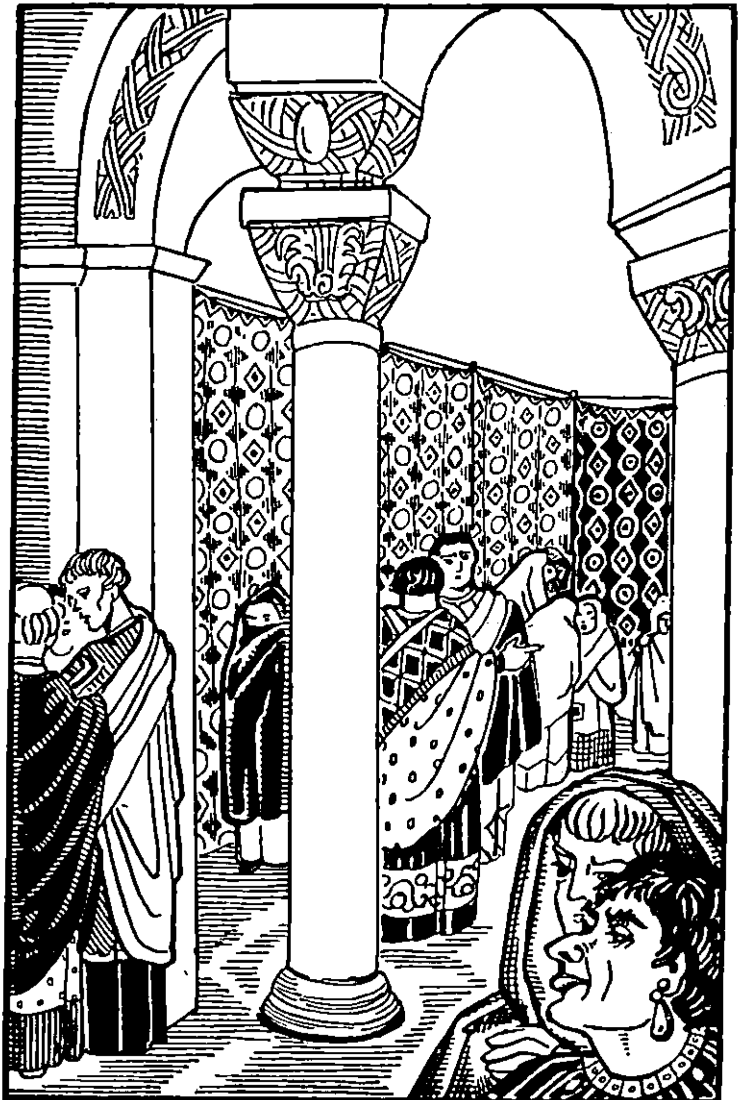

ولك بعد ذلك أن تنفّذ فيها حكم القانون » .

فقال المحافظ وهو لا يكاد يستطيع إخفاء سروره :

– « لقد ألهمني الله أن أفْزَع إليك يا مولاتي وسيدتي صاحبة الجلالة في إنقاذ الإمبراطورية ، فاقْضِي ما أنت قاضية ، في حزمٍ وسرعة ، ولعلك تستصوبين يا سيدتي ومولاتي صاحبة الجلالة أن لا تذكري للإمبراطور أني مصدر هذا النبأ ، فهو نبأ يدور على كل شفة ولسان . . . » فقالت الإمبراطورة مؤمّنةً على كلامه :

– « حسن ! فسأطوي اسمك عن سمع الإمبراطور . . . ولكن . . . لم تذكر لي اسم هذه الراقصة . » فقال المحافظ :

– « إن اسمها "تيودورا" ياسيدتي ومولاتي صاحبة الجلالة » .

فنهضت الإمبراطورة مؤذنة للمحافظ في الانصراف ، فحيًّا وانصرف وفي نفسه أوسعُ الآمال ، فهو يرجو بعد الفراغ من شأن «تيودورا » وزجّها في غياهب السجن، أن يتابع خُطّته في بثّ بذور الفتنة بين الشعب ، وتأليبه على أصحاب العرش. أما الإمبراطورة فبقَيت دقائقَ قليلة واقفة في مكانها ، وهي تردّد بفكر سارح وصوت خافت : « تيودورا » . . « تيودورا » . . .

٥

غادر «حنّا القبدوكى» القصر الإمبراطورى ، وجدّ فى السّير إلى دار المحافظة ، وهو يبنى فى خياله القصور والعلالى ، فقد زين له الوهم أنه اصطاد عصفورين بحجر فى زيارته للإمبراطورة .

وفى اللحظة التى خرج المحافظ فيها من القصر الإمبراطورى ، خرج « أنسطاس » زعيم الشحاذين من مكمنه ، وجدّ هو أيضاً فى السير على ما تسمح له به الشيخوخة والعرج ، وسار فى إثر المحافظ حتى رآه يدخل دار المحافظة ، فعاد على أعقابه إلى القصر الإمبراطورى يتسقّط أخبار زيارة المحافظ فى ذلك الصّباح الباكر ، فعلم أنه طلب مقابلة الإمبراطورة العجوز ، وأنه قضى فى حضرتها طول الوقت الذى مكثه فى القصر ، وعلم

كذلك أن الإمبراطورة قد أوعزت إلى بعض أمنائها وأميناتها ، أن يتقصّوا على فتاة تسمّى « تيودورا » كانت تحترف الرقص ، وهى تقيم الآن بقصر الأمير « جستنيان » وأن يأتوها عنها بأصحّ الأنباء .

وما هى إلا بعض ساعة أو ساعتين ، حتى كان حاجب « تيودورا » قد استقى كل هذه الأخبار من زعيم الشحاذين ، وأخذ يُفْضِى بها إلى سيّدته « تيودورا » . فدعت إليها بعد قليل صديقتها « أنطونينا » وخادمتها « تينا » وأطلعتهما على نبأ زيارة المحافظ للإمبراطورة ، فامتُقِع لون وجهيهما ، وحدثتهما النفس بشرٌ مستطير سيودى بهن جميعاً ، فطيّبَتْ « تيودورا » خاطرهما ، وهدّأت من رَوْعهما ، وأهابت بشجاعتها وقالت : هيّا إلى العمل . ثم طلبت من خادمتها أن تُعينها على ارتداء ملابسها والعناية بزينتها ، فجلتها الخادمة بعد نحو ساعة عروساً كاملة الزينة ، يتألّق جمالها فى أغلى الحلى وأفخر الحُلَل ، فلم تمالك صديقتها وهى مدهوشةٌ خائفة عن أن تسألها قائلة :

— « إلى أين يا عزيزتى ؟ » فقالت « تيودورا » ضاحكة :

— « إلى خَوض المعركة ! » فقالت صديقتها مستغربة :

— « أبهذه الزينة والثياب تخوضين المعركة ؟ ! » فقالت « تيودورا » وهى خارجة من مخدعها :

— « أجل يا عزيزتى إنّى ذاهبة إلى الأمير " جستنيان " » .

وتركت « تيودورا » صديقتها والخادمة ، وسارت إلى مكتب الأمير فى القصر ، ولقد تَعَمّدت أن تلقاه على أكمل زينة ، استثارةً لحبّه وغرامه

بعد إذ دقّ ناقوس الخطر ، فما كانت تشكّ أنه يبادلها الهوى والصّبابة ، وأنه يفضلها على كل مخلوق ، ولكنها خشيت مع ذلك أن يضعفَ فى ساعة النِّضال فيُؤْثر العرش عليها ، فللعروش هوًى غلاّب فإن لم تحارب به المرأة بكل سلاح ، سلَبَها الحبيب وباءت منه بالإخفاق والخِذْلان .

دخلت « تيودورا » على الأمير ، فخرج كلٌّ من كان بحضرته ، وتقدّمت منه ضاحكةً عابثة وهى تقول :

— « عِمْ صباحاً سيدى الأمير » .

فتطلّع الأمير إليها مليًّا ، معجباً بذلك الوجه الجميل المتألّق بالصّبا الناضر والحسن البسّام ، وترك ما فى يديه من أوراق ووثائق ، ونهض يستقبلها قائلا :

— « الله ما أجملك يا " تيودورا " » ! فقالت :

— « ينظر الأمير إلىّ بعين الهوى والرضا فيرانى جميلة ، ولعل بين النبيلات من تفوقنى حسناً وبهاء » . فقال الأمير :

— « أنتِ فى عينى وقلبى أجملُ من أجمل نبيلة ، وأنت أغلى عندى من الحياة » . فقالت :

— « سلمتَ وسلمتْ حياتُك يا مولاى ، ومتّعك الله بأطول الأعمار ، إنى سعيدةٌ فخورة بحبك ، ولكن سعادتى كما تعلم يا مولاى يشوبها الخوف والقلق » . فقال :

— « أتخافين وتقلقين وأنت خطيبتى ، وعمّا قليل ستصبحين

زوجتى ؟! » فقالت :

— « حلمٌ سينتهى بيقظة أليمة ! » فقال :

— « فيمَ هذا التشاؤم ؟ إن عمى الإمبراطور لن يرفض لى ملتمسى فى إلغاء القانون الذى يفرّق بيننا ، فإن أنا لم أفاتحه فى الأمر حتى اليوم ، فنزولاً عند رغبتك فى التريث والانتظار » . فقالت مضطربة :

— « مولاى اعذرنى إذا أنا توجست خيفة من النتائج ! » فقال :

— « ومِمّ تخافين يا حبيبتى ؟ » فقالت جازعة :

— « من منافسةٍ قويّة خطِرة » . فضحك الأمير وقال :

— « أتكونين على مثل هذا الجمال الساحر وتخافى من الغريمات المنافسات ؟! » فقالت جادّةً عابسة :

— « إن غريمتى أبهى منى صورة وأقوى أثراً » .

فعاد الأمير إلى الضحك وقال متسائلاً فى مزاحٍ برىء :

— « من تكون هذه الغريمة الجميلة القوية ؟ حدثينى عنها ناشدتك الله ، وأطلعينى على ما لستُ أعلمُ من شئونى » . فقالت وهى لاتزال عابسة :

— « إنها العرشُ يا مولاى ! » فقال الأمير :

— « ألستِ واثقة بحبى ووفائى يا " تيودورا " ؟! أتحسبين أنى أوثر العرش عليك إذا تأزّمت الأمور وخُيّرت بينك و بين العرش ؟! »

فدمعت عينا « تيودورا » حباً وحناناً ، ولامت نفسها على أن أساءت الظن بحبيبها ، فأمسكت بيده ، وكانا لا يزالان واقفين طوال ذلك

الحديث ، وقادته إلى بعض المقاعد وجلست قبالته وقالت له :

ــ « لقد بدأت المعركة يا أميرى » . فقال متسائلاً :

ــ « أيـّة معركة ؟ »

فأنهت إليه « تيودورا » بما علمت عن زيارة « حنّا القبدوكى » للإمبراطورة ، وكيف أن الإمبراطورة قد أمرت بعض أمنائها وأميناتها أن يتقصّوا شأن الراقصة «تيودورا » ويأتوها عنها بالخبر اليقين ، وختمت حديثها قائلة :

ــ « الرأى أن تسبقَ الأمناء والأمينات ، فتزور الإمبراطورة قبل أن تذهب هى إلى لقاء الإمبراطور ، وتسعى أن تكسبها إلى صفّنا منددأ بالمحافظ الذى لا يستخدم القانون إلا لمآربه وأغراضه ، متوعّداً بأنك سوف تقيله من منصبه لأنه يسعى إلى هدم الإمبراطورية وإقصائكم عن العرش».

فقال الأمير ذاهلاً :

ــ «كيف أتّهمه بهذه التّهمة الخطيرة وليس فى يدى دليل على ذلك».

فقالت « تيودورا » فى حماسة بالغة :

ــ « قلت لك غيرَ مرة إن أعمال هذا المحافظ محفوفة بالريَب والظنون ، فكنت تجيبنى دائماً إنه مِثَال المقدرة والكفاية ، وقلت لك غير مرّة اعْزلْه من منصبه وولِّ غيره محافظاً على المدينة ، فكنت تتردّد وتخشى وِزر العتُوّ والظلم ، أليس هذا المحافظ عدوّى أنا ؟ أوَليس فى هذا سبب أىّ سبب يدفعك إلى التخلص منه والضرب على يديه ؟ »

ثم سكتت قليلاً ، وتفرّست فى وجه الأمير ، فأدركت أن نفسه

تتفاعل بكل كلمة قالتها ، فشاءت أن تزيدها حماسة وتحفزاً فاستأنفت كلامها قائلة :

— « لئن لم يضرك التردد حتى اليوم، إنه لسوف يضيرك غداً وينتزع منك الثقة بنفسك ويباعد بينك وبين الأنصار والأعوان ، فلا يقيمون لكلماتك وزناً ولا قيمة، فاضرب ضربتك ظالماً كنت أم عادلاً ، ومخطئاً كنت أم مصيباً ،فلن تعدم بعدها وسيلة تصحح بها الأخطاء وتنتصف للمظلوم ، فحسبك أن يكون رأيك هو النافذ وكلمتك هى المطاعة » .

— « ولكن تهمة الخيانة العظمى التى تريدين أن ألصقها بالمحافظ دون دليل قاطع ثابت ، ليست بالأمر اليسير ولا بالخطأ الذى يمكن تلافيه بعد وقوعه » . فقاطعته وقالت :

— « ألصق به هذه التهمة وعلى وزرها، إن المدافع عن نفسه لحقيق أن يستخدم كل سلاح ، فالمحافظ قد ناصبك العداء السافر بالتجائه إلى الإمبراطورة، فاجهد أن تكيل له الصاع صاعين بل أكثر ، واعلم أن الكذب والختل والخداع فضيلة من فضائل الساسة والملوك ، وعما قريب ستكون إمبراطور هذه الدولة العظيمة المترامية الأطراف ، فاجتث من طريقك الشوك ، والعوسج ، واستأصل من نفسك نزعات الضمير ، وإلا وهنت شوكتك وسرت مصيراً » .

وما زالت به واعظة مرشدة ، مستثيرة مستفزة ، حتى ذهب قبيل العصر إلى لقاء الإمبراطورة وهو منتفخ الأوداج ، مملوء الصدر بالحمية

والحماسة ، وبقيت « تيودورا » تنتظره على نارٍ أحرّ نارِ الجحيم أبردها .

ولما عاد إليها في المساء بادى الاضطراب مهمومَ النفس ، قرأت فى عينيه معانى الخيبة والإخفاق ، فارتعدت فرائصُها ولكنها أهابت بعزمها وشجاعتها وجلَدها ، وخفّت إليه باسمة العينين والقسمات ، محاولة أن تبدّد ببسمتها غمائم الأشجان من نفس الأمير ، وأن يجد فى لألاء بهائها جميل العزاء ، فقدّمت له مقعداً وجلست إلى آخر بإزائه ، وقالت وهى تخفى القلق وتظهر عدم الاكتراث :

— « يلوح لى أن الإمبراطورة قد استقبلتك استقبالاً فاتراً » .

— « بل كان لقاء عاصفاً افترقنا منه خصمين متغاضبين » .

— « حدّثنى يا أميرى بدقائق الحديث الذى جرى بينكما لأكون على بيّنة من الأمر » . فقال الأمير :

— « لم يكن ذاك حديثاً بل حجارة رجمتنى بها ، فقد كانت غضبتها الأولى أنك ضربتِ بالقانون عرض الحائط ، فارتديت ثياباً مثل ثيابها ، وكانت غضبتها الثانية أن أعلق براقصة تستخدم السحر فى الاستحواذ على فؤادى ، وكانت غضبتها الثالثة أن أسكنك فى قصرى وأحميك دون أحكام القانون ، فخدشتُ بذلك حياء العذارى والسيدات من النبيلات ، وكنتُ أسوأ مثل للشعب فى التطاول على القانون » . فقالت « تيودورا » :

— « وكانت غضبتها الرابعة التى أطارت منها الرّشد والصواب ، أنك تنوى أن تتزوج تلك الراقصة » . فقال الأمير :

— « أمسكت عن ذكر الزواج فى ذلك الجو العاصف ، وأمسكت

عن اتّهام المحافظ بعد أن أكدت لى الإمبراطورة أنها استقت أنباءها من سواه » . فعضّت « تيودورا » على شفتيها سُخطاً وحنقاً ، ولكنها كتمت غيظها وسألت الأمير :

— « وخلاصة ذلك الغضب ؟ » فقال الأمير :

— « أعفيني يا " تيودورا " من ذكر تلك الخلاصة » . فقالت :

— « اذكرها واعتمد على شجاعتى » . فقال الأمير كاسفَ البال :

— « أن أطردكِ من قصرى وأتركك لعدالة القانون » . فقالت :

— « وإن لم تفعل ؟ » فقال :

— « ستحمل الإمبراطور على أن ينبذنى نبْذَ النّواة ويحرمنى ميراثَ العرش » . فقالت :

— « ألا ترى أن وراء كل هذا محافظك الجليل ؟ ! »

وشاءت « تيودورا » أن تعجُم عُودَ الأمير لآخر مرّة ، وتستوثق فى بقائه على حبّها والوفاء لها مهما تحرّجت الأمور ، فقالت له بلهجة كلها حزم :

— « نفسى تحدّثنى أنى جلبتُ إليك العار والعناء وبلبلة الفكر ، ومعاذَ الله أن أكون السّبب فى الحيلولة بينك وبين العرش ، فها أنا ذا أحلّك من عهدك ، وأستودعك الله إلى حيث ترمى بى المقادير ، ولسوف أعيشُ ما عشت ، وأنا مقيمةٌ على حبّك ، وفيّة لذكرك ، شاكرةٌ لفضلك ، على أن لى رجاء واحداً ألتمسه من مولاى هو أن يضمن لى الرحيل عن القسطنطينية سالمة آمنة ، فلن يرضيك أن أغيَّبَ فى غياهب السجون بعد نزولى بقصرك

المنيف » . فوثب الأمير واقفاً وقد تملكه الغضب والخوف وقال :

— « قلت لك إنك عندى أغلى من الحياة وأثمن من العرش ، فلن تبرحى قصرى ما دام فىَّ عرْقٌ ينبض ، فإن ضاقت بنا الحيل فى هذا البلد هجرناه إلى بلد آخر وعشنا معاً هانئين سعيدين » .

سَرَّ « تيودورا » أيَّما سرور أن تسمع من الأمير هذه المواثيق ، وعرفت أنه ليس بكاذب فيها ولا مخادع ، ولكنها تمادت فى سبرها غوْرَهُ وقالت :

— « الدولة فى حاجة إليك يا أميرى ، فلمن تترك العرش بعدك ؟ » فقال الأمير :

— « إذن فابْقَىْ إلى جانبى وواجهى الأخطار معى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . فلا يزال لدينا ملجأ أخير هو الإمبراطور» .

فافترَّت شفتا « تيودورا » عن أسنان كاللؤلؤ المنضود ، وشخصت إلى الأمير ببصرها معربةً له عن حبها العميق وولائها الصادق .

وحان موعد العشاء فتناولاه معاً ، ثم خرجا من قاعة الطعام إلى أحد الأبهاء وقضيا الليل يتناجيان مرّة ، ويتسامران أخرى ، كأنهما فى مأمن من الأخطار أو كأنهما على موعد من السعادة .

وعند الفجر استيقظ كلُّ مَنْ فى القصر مذعوراً على دقَّات نواقيس الكنائس ، فارتدى الأمير ثيابه على عجل ، وخرج من مخدعه فإذا « تيودورا » واقفةٌ فى بعض الأروقة ، وإلى جانبها صديقتها « أنطونينا » فأقبل إليها وقال لها فى اضطراب ظاهر :

—« إنها دقّات الحزن والحداد يا "تيودورا" ولا تُدق إلا للرجل الأول فى الدولة أو لزوجته . إنى ذاهب إلى القصر الإمبراطورى » .

فلم تنبس « تيودورا » ببنت شفة ، فحيّاها وغاب عن أنظارها ، وما هى إلا لحظاتٌ قصار حتى كان حاجب « تيودورا » ينعى إليها الإمبراطورة العجوز توفّاها الله على إثر نوبة قلبيّة لم تمهلها دقائق معدودات .

وأعلن الحداد فى القصر مدة شهر كامل ، وحاول « حنا القبدوكى » فى خلال هذا الشهر أن يحظى بلقاء الإمبراطور ، فكان الأمناء يحيلونه على الأمير « جستنيان » واستطاع الأمير بإرشاد « تيودورا » وتوجيهها أن يحمل الإمبراطور على إلغاء قانون الأزياء والملابس ، فتنفّست « تيودورا » الصُعداء : وازدادت حزماً فوق حزم ، وقوةً فوق قوة ، ثم أوعزت إلى الأمير أن يلتمس لها المثول بين يدى الإمبراطور الشيخ ففعل ، وأعجب الإمبراطور بجمالها الفتّان ، وذكائها النادر ، وسمح لها بزيارته فى كل وقت تشاء ، فأصبحت تزوره مرات فى كل أسبوع ، تُسرّى عنه همّ الشيخوخة وتسلّيه على فقد شريكة حياته ، وتقُصُّ عليه النوادر والطرائف ، حتى نزلت من قلبه نزولاً كريماً ، وما زال الأمير « جستنيان » يلحُّ على عمّه الإمبراطور فى إلغاء القانون الذى يحرّم على النبيل أن يتزوج راقصة أو ممثلة حتى وافق على إلغائه .

وهكذا أصبحت « تيودورا » الراقصة الممثلة زوجة الأمير « جستنيان » .

٦

لو شاءت « تيودورا » منذ بلغت أشُدَّها ، أن تملى إرادتها على القدر فيحقق لها ما تتمنّى ، ما جرؤت أن تتمنّى عليه أن تكون زوجة أمير مع ما كان فى نفسها من طموح وثَّاب ، ولو تنبأ لها راجمٌ بالغيب ، أنها ستُرفع يوماً إلى ذلك المقام ، وهى ابنة مروّض الدّبية ، لهزأت به وأعرضت عنه ساخرة ، فلا عجب إذا كانت فى شبه غيبوبة يوم اقترب منها النبلاء والنبيلات مهنِّئين ومهنِّئات.

وحينما وصل « حنا القبدوكى » محافظ العاصمة إليها ليقدّم لها فروض التهانى ، أيقظتها من غيبوبتها الحالمة هزّةٌ سرت فى جسدها ، فتبسمت فى وجهه فائزةً منتصرةً ، فكظم غيظه وانحنى أمامها فى مزيد من التعظيم والإجلال.

لم تسكر « تيودورا » بخمر النصر ، فما كان ليغيب عن بالها أن هؤلاء المهنّئين والمهنّئات يُضْمِرون لها أشدَّ الحقد والكراهية، وأنهم يُخْفون وراء وجوههم الباسمة قلوباً تصْلى بنارِ الحسد والغيرة والبغضاء، فتقبلت سعادتها الجديدة مشوبةً بشيء من المخاوف شحذَ منها غِرار العزم، وأوحى إليها أن لا تفْتُرَ عن اليقظة والحذر، دفاعاً عن سعادتها وحُبّها .

ومضت الأشهر الأولى من زفافها إلى الأمير هادئةً مستقرّةً، لم يعكّر صفوها حادث من الحوادث ، وكان العروسان سعيدين كل السعادة ، يتنافسان فى الحب والإخلاص ، وتشاركه هى برأيها الثاقب فى أكثر مشكلات الدولة .

وكان الإمبراطور الشيخ قد بلغ به الهرم والداء كل مبلغ ، فنهض الأمير « جستنيان » بجميع الأعباء ، واقتصرت مهمة الإمبراطور الشيخ على بَصم الوثائق وختمها بخاتمِه الإمبراطورى .

واستشار الأمير « جستنيان » زوجته فى شأن محافظ المدينة فرأتْ من صواب الرأى أن تبقيه فى منصبه مغْ تشديد الرقابة عليه ، فما كان فى يدها حتى تلك الساعة أى دليل على خيانته، فلو أعْفِى من منصبه لكثرت فى ذلك الأقاويل، وربما جرّت إلى الفُرْقة بين صفوف الشعب خاصّته وعامّته؛ والأمير بعدُ لا يعتمد على أحد فى تثبيت أقدامه فى الحكم فضلاً عن أن ميراثه للعرش قد يكون مثاراً للجدل .

ولقد اعترفت « تيودورا » فى قرارة نفسها لذلك المحافظ بالذكاء

والدهاء، وكانت تعلم علم اليقين أنه طامعٌ في العرش، وأنه يعدّ له عدّته. ولكن تعذّر على جواسيسها أن يقدّموا لها الدليل فتدهمه متلبّساً بجريمة التآمر على العرش .

وأوحت ذات يوم إلى زوجها الأمير أن يعيّن في الشرطة والحرس نفراً من الناس اختارتهم لذلك ، فأجابها إلى مطلبها ، ولم يكن أولئك الشرطة والحرس الجدد إلا عصابة المتسوّلين الذين يتزعمهم « أنسطاس » الشيخ الأعرج ، فكانوا عيونها الأوفياء إلا « أنسطاس » فقد حالت شيخوخته وعاهته دون تعيينه في عمل من الأعمال ، فبقى الزعيم الذى يأتمر رجاله بأمره قربوا منه أم بعدوا .

وتوصّلت « تيودورا » بذكائها الخارق إلى أن تكون عقل زوجها المفكر ورأيهُ المدبّر ، وكان هو يرتاح إلى تلك المشاركة وينعم بها ، ولاسيّما أنّ آراءها الثاقبة في كل كبيرة وصغيرة كانت تُختتمُ بأحسن النتائج، مما زاد الأمير بها افتتاناً وعليها تعويلاً ، فلم يعد يرى بها الزّوجة الحبيبة والمرأة البارعة الجمال ، بل أصبح إلى ذلك كله ، يجد فيها الشريكة التى لا يستغنى عن فكرها النيّر ، وهمّتها القعساء، وإرادتها القويّة ، وكأنه شعر بتفوّقها عليه ذكاءً وسدادَ رأى، فصار لا يفصل في أمرٍ إلا إذا فحصته ووافقت عليه .

ودفعت « تيودورا » زوجها الأمير إلى أن يعنى بشئون الدولة الخارجية عنايته بأمورها الداخلية، ونصحته أن يولى المزيد من اهتمامه بالجيوش التى

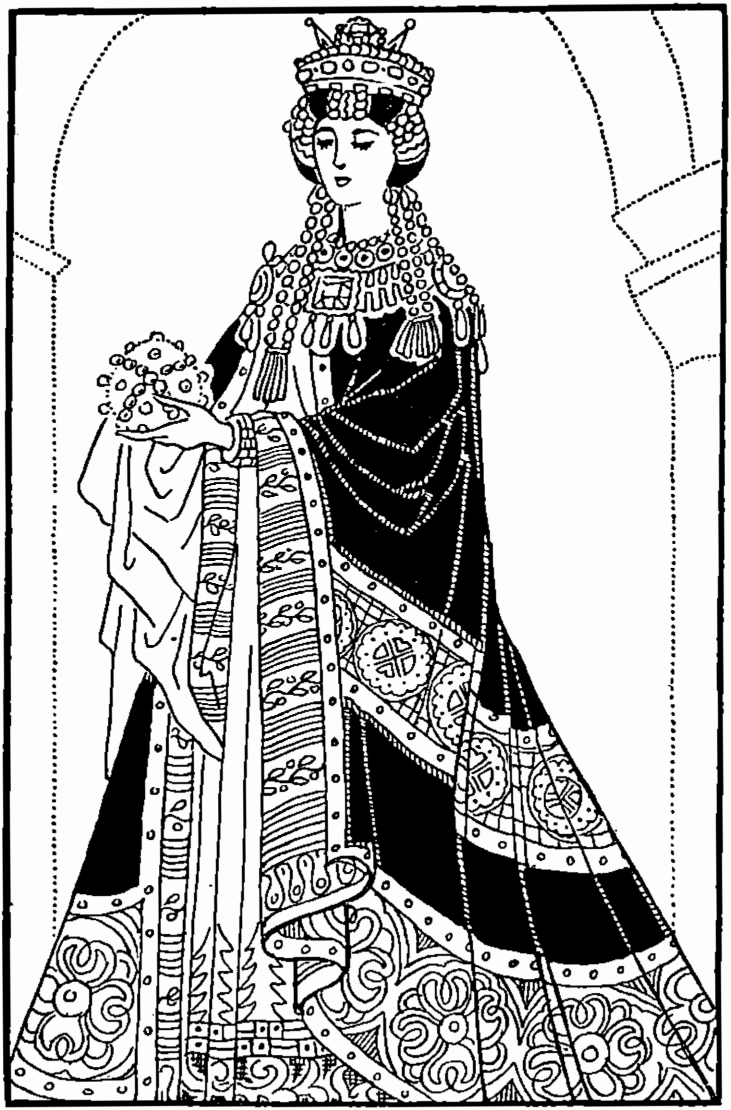

تحارب فى بلاد فارس، وأن يغدق على أميرها الأوسمة والرتب والنعم ، وأوعزت إليه أن الجيش هو سنده الأوحد فى الوصول إلى العرش، فكل ما فى العاصمة من رجال الدرك والشرطة والحرس، إنما هم ألعوبة فى يد المحافظ فلو طمع طامع فى العرش فلن ينصره عليه إلا الجيش .

ولما أكثرت عليه القول فى هذا قال لها يوماً :

-- « لا إخالك يا حبيبتى تجهلين أن أميز الجيوش لو بالغنا فى إكرامه والإنعام عليه ، وسجله حافل بالنصر ، كان هو مصدر الخطر » .

فقالت :

— « حسبك أن تتخذه مطية إلى ارتقاء العرش، فإن رأيت منه بعد ذلك مثاراً للريب، سهل عليك أن تقذفه إلى الجحيم » . فقال الأمير فخوراً معجباً بزوجته :

— « لله درك يا "تيودورا" إن ذكاءك ليعدل جمالك ! »

وثقلت الأعباء على كتفى « تيودورا » فنهضت بها خير نهوض، وكانت إلى ذلك لا تنقطع عن زيارة الإمبراطور الشيخ ، وظاهر أمرها تسليته ومواساته فى عزلته ومرضه، وباطن غرضها معرفة من يتصل بالإمبراطور وما يجرى حوله ، وكانت كلما رأته يقترب من نهايته ، اختلج قلبها سروراً وخالط ذلك السرور كثير من الهلع والفزع لبعد الجيش عن عاصمة الدولة .

وعلمت « تيودورا » من زيارتها المتكررة للإمبراطور الشيخ العليل ،

أن محافظ المدينة أكثرُ الناس سؤالاً عن صحته الغالية ، فصحَّ فى ذهنها أن الرجل ينتظر يوم الوفاة ليكشف القناع عن مطامعه فى العرش ، ولكن فى أى جحيمٍ يجتمع بأعوانه ؟ هذا ما لم تستطع « تيودورا » أن تزيح الستار عنه ، ولا استطاع جواسيسها أن يعرفوه . والواقع أن المحافظ كان يعرف رجاله دون أن يجتمع بهم ، فِراراً من أعين الجواسيس التى بثَّتها « تيودورا » من حوله ، فكانت خطته أن يُهيب بهم ساعة يُسْلِم الإمبراطور الروح ، فيسارعوا إلى تلبية النداء ، وكلهم إمَّا متذمِّرٌ من الأمير وزوجته ، وإما صنيعةٌ من صنائع المحافظ .

وأدركت « تيودورا » فى زورتها الأخيرة للإمبراطور العليل ، أنه لن يعيش طويلاً ، فأُسْقِطَ فى يدها ، وبدأ القلق ينخرُ فؤادها ، فقد يعِزُّ عليها النَّصير فى اليوم العصيب ، فإن «بلساريوس» بعيد الشُّقَّة فى فارس ، والجيوش الأخرى موزَّعةٌ فى طول الإمبراطورية وعرضها ، تحمى حِماها وتسهرُ فيها على الأمن والنظام .

وأعملت « تيودورا » فكرها فى الموقف الدَّقيق ، ثم سارعت إلى زوجها فى مكتبه وقد كان غارقاً فى أضابيره وأوراقه فحيَّته وقالت :

— « ابعث برسالة فى الحال إلى أمير الجيوش "بلساريوس" تُثْنِى فيها الثَّناء المستطاب على شجاعته وبسالته ومقدرته العسكرية ، وتذكر له فيها أن الوطن مدين له بتلك السلسلة من الانتصارات التى أحرزها فى بلاد فارس ، قادرٌ له ما حازه من مغانم وأسلاب » . فقال «جستنيان» مقاطعاً :

ـ « هذه حقائق ناصعة ولكن هل تقال الحقائق ؟ » فهزّت رأسها الجميل وأضافت قائلة :

ـ « وتخبره فيها أنك تمنحه باسم الإمبراطور أرفع وسام فى الدولة ، وتُقْطِعه الأرضين الواسعة اعترافاً منك بجميله على الوطن » . فقاطعها الأمير وقال :

ـ « أما زلت مصرّة على رأيك ؟ إن "بلساريوس" قائد كفءٌ بارع ، ولكنه لا يزال فى رونق الشباب ، فحسبه أنه وصل إلى أعلى رتبة فى الجيش وهو بَعْدُ فى مستهلّ العقد الثالث من عمره ، وقد يركب رأسه زهواً وخيلاء فيخسره الوطن . . . » فاستأنفت حديثها وقالت :

ـ « وتُنهى إليه أن انتصارات جيوشه فى فارس ، قد ثبتت أقدام "بيزنطة" فى تلك البلاد ، فلن يمضى القليل حتى يستسلم الفرس ويطلبوا الصلح ، فعليه حالما يقف على هذه الرسالة أن يعود إلى العاصمة بأحسن جيوشه وأشجعها ، فإنك تُعد العُدّة لفتحٍ جديد ، وستعهد إليه فى القيادة وانتزاع النصر » .

فنظر إليها الأمير فاغر الفم حائرَ العينين وقال :

ـ « أىّ فتح جديد أعدّ له العدّةَ ؟ ! » فابتسمت وقالت :

ـ « هبك تريد فتح بلاد السّند والهند ، وماذا عليك لو فكّرت فى أمر ثم عدلت عنه ؟ المهمّ أن يكون "بلساريوس" هنا يوم تقودُك الأقدار إلى العرش لترقى درجاته . . . ولا تَنْسَ أن تحيط هذا الأمر بالكتمان الشديد . . . » .

ونفّذ الأمير رغبة « تيودورا » وكتب هو نفسه الرسالة، وختمها بخاتَم الإمبراطور دون أن يُلقى الإمبراطور إليها بالاً، وائتمنَتْ « تيودورا» عليها أحد رجالها الأوفياء، وكلفته أن يوصلها إلى «بلساريوس » وأخذت تصلّى إلى الله بكرةً وأصيلاً ، وقد تعوّدَت الصلاة منذ أصبحت زوجة « جستنيان » ، أن يطيل أجل الإمبراطور الشيخ العليل ، حتى يقدم أمير الجيوش ، ولم تدخر وسعاً فى هذه الأثناء من أن تحيط الإمبراطور بالمزيد من عنايتها والسهر عليه .

ولا تَسَلْ عن فرحها وحبورها يومَ جاءت الرّسُل بعد أيام غير طويلة، تقول إن الجيش على أبواب العاصمة « وبلساريوس » على رأسه ، ولئن وقع هذا الخبر على قلب « تيودورا » بَرْداً وسلاماً ، لقد نزل على فؤاد «حنا القبدوكى» محافظ العاصمة نزولَ الصاعقة ، فعضّ على أنامله أسفاً وندماً وعنّف نفسه أشدّ التعنيف على تردّده وتأخره فى ضرب ضربته، وفهم أنه أضاع فرصة ذهبيّة ، ولكنه عز عليه أن يفهم كيف يصبح الجيش بين عشيّة وضُحاها على أبواب العاصمة ، فاستسلم لمشيئة الأقدار على أمل أن يظفر بفرصة ذهبية أخرى يكون فيها أنفَذَ رأياً وأسرَعَ بطشاً .

وأشارت« تيودورا » على «جستنيان» أن يحتفل باستقبال «بلساريوس » احتفالاً عظيماً ، فاستقبله أروعَ استقبال فى عَرْضٍ عسكرىّ، شهده كبارُ رجال الدولة ، وجماهيرُ غفيرةٌ من الشعب ، وعقد على رأسه فيه غار النصر ، وزيّن صدره بأرفع وسام فى الدولة . ثم أقيمت له المهرجانات

واحداً تلو آخر ، وأولمت على شرفه الولائم واحدةً بعد أخرى ، وكانت أعظمها فخامة ورونقاً وفنـاً ، مأدبة «جستنيان» و « تيودورا » فقد أضفَت عليها « تيودورا » من أفانين الجود والزينة والمرح ، وضروب التنسيق وألوان الطعام والشراب ، ما خلبت به الألباب والعقول .

وحرصت « تيودورا » على أن تلقى « بلساريوس » فى أوّلِ لقاء ، كاملة الزينة مجلوة الجمال ، لما تعلمه من أثرِ الحسن فى قلوب الرجال ، فلم يكد هو يلمحها عن بعد يوم العرض العسكرى حتى أخِذ بجمال تلك الدرّة المتألّقة إلى جانب « جستنيان » ، وأدرك أنها زوجة الأمير ، فقد كان انتهى إليه وهو فى مَيْدان القتال أمرُ ذلك الزواج ، وعند ما تقدّم من منصتهما بقامته الممشوقة ، وصدره الواسع ، ومنكبَيْه العريضين ، ليزين الأمير رأسه بإكليل النصر ، ويقلده الوسام الرفيع ، كانت نظراته كلها على رغمٍ منه مصوّبةً إلى « تيودورا » وهو مدهوشٌ ذاهل من هذه الآية الفريدة للحسن والجمال ، فقابلت « تيودورا » نظراته بابتسامة حلوةٍ ، مزهـوّة بسلطان سحرها ، موقنةً بأن سوف يكون ذلك القائد العظيم رهنَ إشارتها وطوعَ بنانها .

وفى جميع المهرجانات والمآدب التى أقيمت تكريماً للقائد الباسل المغوار ، كانت « تيودورا » ظاهرةَ العناية به والرعاية له ، كثيرة التحدّث معه فى مختلف الشئون ، ما بين عسكرية وسياسية ودولية . فازداد القائد بهذه السيدة الجميلة الذكية إعجاباً فوق إعجاب .

ولم يفت « تيودورا » أن القائد « بلساريوس » قد غدا أطوعَ من العجين فى يديها ، بيد أن حساب المستقبل كان لا يزال شُغْلَها الشاغل ، فأنعمت الرّويّة مفكرة فى أمرٍ يضمن لها ولاء القائد « بلساريوس» ضماناً قويًّا وثيقاً ، فتفتّق ذهنها الفتىّ الكبير عن وجوب استخدام صديقتها « أنطونينا » فى الوصول إلى ذلك الضمانِ القوى الوثيق ، ولا سيما أنها كانت قد خلعت على تلك الصديقة الوفية رتبة وصيفة الشرف الأولى فى قصر « جستنيان » وكانت « أنطونينا » هى أيضاً على قسط وافر من الصِّبا النّضير والجمال المشرق ، فما هى إلا أيام قلائل حتى حقّقت « تيودورا » غايتها فزُفّت « أنطونينا » إلى القائد «بلساريوس » وكان شاهدا العروسين الأمير « جستنيان » وزوجته « تيودورا» وفى ذلك كل معانى التكريم للقائد وعروسه ، واغتبط « بلساريوس » بذلك الزواج اغتباطاً كبيراً ، فقد ظفر بعروس جميلة جعلته من الأسرة المالكة أثيرَ المنزلة وثيقَ الصلة، وبينما كان صدر العروسين يختلج بالفرح والمسرة كان صدر « حنا القبدوكى » يجيش بالحقد والسُّخْط والبغضاء .

وبعد أيامٍ قلائل دقّت نواقيس الكنائس مرة أخرى دقّات الحزنِ والحِداد فخرجت العاصمة على بكرة أبيها تشيع جثمان الإمبراطور الراحل إلى مقرّه الأخير ، وتستمطر عليه شآبيب الرحمة والرّضوان .

وسار الموكب بنعش الإمبراطور إلى ضريحه الخاص، بين صفّين من الجند منكّسى الرايات والسّلاح . ولما عاد كبار المشيّعين إلى القصر

الإمبراطورى ، تولى رئيس مجلس الشيوخ كتابة الوثائق القانونية للمناداة بالأمير « جستنيان » إمبراطوراً على بيزنطة . فأنهى إليه « جستنيان » بأن ينصّ فى وثيقة تولى العرش على أن زوجته «تيودورا » ترقى معه درجات العرش لا على أنها زوجته فقط بل على أنها شريكة له فى الحكم والسُّلطان ، فتردّد رئيس مجلس الشيوخ قليلاً وهمّ «حنا القبدوكى» بالكلام فدوّى صوت « بلساريوس » قائلاً لرئيس مجلس الشيوخ :

— « ماذا تنتظر يا سيِّدى فى تنفيذ رغبة جلالة الإمبراطور؟ »

فأذعن رئيس المجلس . فتمّت على الفور كتابة المراسيم القانونية ، وخرج « بلساريوس » إلى شرفة القصر الإمبراطورى . وأطلّ على الجموع الغفيرة المحتشدة فى الميدان . وصاح بأعلى صوته الجَهْوَرِىّ الرنّان :

— « مات الإمبراطور . عاش الإمبراطور » .

فردّدت الجموع الزاخرة هتافه . ثم استأنف « بلساريوس » وصاح :

— « وعاشت الإمبراطورة " تيودورا " شريكة للإمبراطور » .

فردّد الشعب مصفقاً مهللاً دون أن يفهم معنى ذلك الهُتاف :

— « عاشت الإمبراطورة " تيودورا " شريكة للإمبراطور » .

وهكذا أصبحت « تيودورا » الراقصة الممثلة إمبراطورة على الدولة البيزنطية . . .

٧

اعتلت « تيودورا » عرش « بيزنطة » في شهر أغسطس من عام ٥٢٧ للميلاد ولمّا تتجاوز ربيعها الحادى والعشرين ، ولولا طموحها الواسع وذكاؤها الخارق ، وعزيمتها التى تزعزع الجبال ، لباعدت الأقدار بين « جستنيان » والعرش ، ولما لبست تاج أعظم دولة فى ذلك العصر ، بل لظلّت الفتاة الجميلة التى تحترف الرقص والتمثيل فى مسارح القسطنطينية وحاناتها .

ولقد تدرّج طموحها تدرُّج الفوز الذى نالته مرحلة بعد مرحلة ، فقد بدأت مطامحها بأن تكون خليلة الأمير ، فما عتّمت أن أصبحت خطيبته وضيفته فى قصره ، ثم زوجته ثم إمبراطورة على دولة تحكم الشرق والغرب .

وعند ما خلت إلى زوجها فى مساء ذلك اليوم الذى حظيت فيه بالتاج والصولجان ، بثته أوفر الشكر ، وبثها هو أسمى آيات الحب ، وتعاهد الزوجان بل الإمبراطوران فى قبلة طويلة وعناق أطول ، أن يخوضا معارك الحياة معاً ، تحت لواء الحب والإخلاص .

وكان « جستنيان » فى تلك الأيام التى سبقت وفاة الإمبراطور « جستان » قد أدخل فى روع القائد « بلساريوس » نزولاً عند نصيحة « تيودورا » أنه يُعِدُّ له حملة عظيمة ، يفتتح بها بلداً بعيداً ، ثم شغلت « بلساريوس » الحوادث الخاصة والعامة عن التفكير فى ذلك الفتح الجديد أو السؤال عنه .

أما « حنا القبدوكى » محافظ العاصمة فقد أبقته « تيودورا » فى منصبه إمعاناً فى تعذيبه ، ورغبة منها فى محاسبته حساباً عسيراً عن كل واردة وشاردة تصدر منه ، فى القيام بأعباء منصبه ، غير أنه كان يتحمل طغيانها وتعنتها بصبر عجيب ، وفى قرارة نفسه رغبة ملحة فى الانتقام وشق عصا الطاعة فى يوم من الأيام .

ومرت الأشهر على « تيودورا » وهى تتمرس بأمور الحكم ، وتبدى فيها عبقرية نادرة تتقطع دونها أعناق غُلْبِ الرجال ، وترك « جستنيان » لها الحبل على الغارب ، وانصرف هو ورئيس مجلس الشيوخ ، وكان من رجال القانون الأفذاذ ، إلى دراسة القوانين واللوائح وتصفيتها ، واستخلاص الصالح النافع منها ، وضمها فى سفر يطلق عليه اسم « مدونة جستنيان » .

وتلقّت «تيودورا» ذات يوم من مَيْدان القتال بفارس أنباء غير سارّة نقلت إليها أن الفرس قد استعادوا بعض ما خسروا من مدائن وأرَضين ، وأنهم يؤلِّبون على الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا وإفريقيا دول البحر الأبيض التابعة لها ، ويبثّون فيها الدعوة إلى التمرُّد والعصيان فى سبيل الاستقلال ، بل إنهم توصلوا إلى إثارة الحبشة أيضاً على الدولة البيزنطية ، فعقدت « تيودورا » عند تلقّيها هذه الأنباء مجلساً حربيًّا تصدّرت فيه هى « وجستنيان » ، وأدلى كلٌ من شهد المجلس برأيه ، واقترح « بلساريوس » أن يعود على الفور بجيشه إلى فارس ويضربها الضَّرْبَةَ القاصمة .

واستمعت « تيودورا » لكلٍّ من تحدّث فى المجلس ، وهى ساكنةٌ ساكتة ، ثم أطرقت قليلا وقالت :

— « يجب أن نقضى أولاً على الثورة فى مَهْدها ، وأن نحمى أنفسنا منها تأميناً لظهر الجيش المقاتل فى "فارس" ، فعلى أمير الجيوش "بلساريوس" أن يسير بجيشه إلى البلاد الآسيوية والإفريقية ، ويجتهد فى قَمْع الفِتَن فيها سواءٌ بالقوة أم بالحيلة ، وعليه أن يراسل الحبشةَ ، ويوفد إليها الوفود باسمنا ، وأن يُوقع بينها وبين "فارس" بما يستطيعه من دهاء ومكر ، فإذا أمِنَ جانب تلك الدول جميعاً مشى إلى "فارس" ونكّل بها تنكيلاً ، ثم عاد إلينا ظافراً منتصراً ، ولا نخاله إلا عند الثقة التى أوليناه إياها » . فوضع « بلساريوس » كفّه على مقبض سيفه وقال وهو معتزٌّ بثقة الإمبراطورة :

ــ « أمرك مطاعٌ يا صاحبة الجلالة ، وأرجو أن أكون عند هذه الثقة الغالية » .

وارْفضّ المجلس ومشى « بلساريوس » بعد أسابيع قليلة على رأس جيشه ، متّبِعاً الخطة التى رسمتها له الإمبراطورة « تيودورا » .

ورأت « تيودورا » من صواب الرأى بعد إذ خلت العاصمة من معظم فرق الجيش وكتائبه ، أن تقيل « حنا القبدوكى » محافظ العاصمة من منصبه حتى تقطع كل صلة له بحامية العاصمة من دَرَك وشرطة وحرس ولا يكون على شىء من السلطان إذا ما سوّلت له النفس الإقدام على أى عملٍ من أعمال العصيان والعدوان . ولم ترهب « تيودورا » هذه الإقالة ، ولا خشيت مغبّتَها بعد ما دان لها الكبراء والعظماء من يوم لبست التاج واضطلعت بشئون الحكم .

وغاب « بلساريوس » عن العاصمة نحو أربع سنوات ، قام فى خلالها بالمهمة الموكولة إليه خير قيام ، فقد أقرّ الأمن فى جميع البلاد التابعة للدولة البيزنطية ، وقضى على عناصر الشّغَب فيها ، وقوّى شوكة الحاميات ، واستطاع أن يبذر بذور الشقاق والخلاف بين « الحبشة » و« فارس » ثم انقضّ على الفرس انقضاض الجوارح ، وأعمل فيهم الطّعْن والضّرْب والتخريب والتدمير ، حتى هزمهم شرّ هزيمة ، وفرض عليهم أثقل المغارم ، وعاد بجيوشه إلى العاصمة فى مستهل الأسبوع الثالث من شهر يناير سنة ٥٣٢ للميلاد .

وقبضت « تيودورا » فى خلال هذه السنوات الأربع على ناصية الأمور بيدٍ من حديد وهى صاحبة اليد الجميلة والأنامل الناعمة، فكانت المنتقمة الجبارة تبطشُ بأعظم عظيم وأكبر كبير ، وكانت الحكيمة المشترعة تسنّ القوانين وتضع الأنظمة فلا يخالفها « جستنيان » فى شىء منها ، وكانت الطمّاعة الجَشِعة لا تتورع عن مصادرة كل ما يروقها من أملاك الأثرياء وأموالهم، وكانت العاتية القاسية تُرْهِق كواهل الشعب على مختلف طبقاته بأشدِّ أنواع الضرائب والجِزَى والمكوس، وكانت الطاغية المتعنّتة صاحبة البأس والجبروت والعظمة والكبرياء ،لا تحجم عن رفْسِ أنْبَل نبيل وهو مُكبٌّ على قدمها يقبلها هَواناً وصَغاراً .

على أنها كانت إلى هذا كله بَرّةً بالمخلصين والمخلصات من أصدقائها وصديقاتها ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً صديقتها الحميمة « أنطونينا » وقد بقيت إلى جانبها وصيفة شرف لها ، ولم تسافر مع زوجها « بلساريوس» ، ثم خادمتها « تينا » وقد أعتقتها وجعلتها فى عداد الوصيفات ، وأغلبهن ممن عرفتْهن فى أيام البؤس والشقاء ، ويا ويل النبيلات اللواتى كنّ يتذمّرن من تعيين مثل أولئك الوصيفات أو ينلنهنّ بالمساءة والمذمّة ، فقد كانت « تيودورا »تقصيهن عن بلاط الشّرف ،وتَجْلِد أزواجَهن جلداً مبرِّحاً . كذلك كان « أنسطاس » زعِيم الشحاذين ورجاله موضع عطف «تيودورا »تغدِق عليهم العطاء والمنح فى كل فرصةوأخرى، فرهنوا لها أنفسهم وأرواحهم وظلوا كما كانوا ألسنتها وعيونَها فى مختلف الأماكن والأحياء .

وكانت « تيودورا » بعد نحو سنتين من ارتقائها العرش قد أحسّت بتذمُّر الشعب وتململه ، فإن كان النبلاء والأغنياء ما برحوا ، على طغيانها وجبروتها، غارقين فى النعيم والترف إلى الأذقان ، فطبقات الشعب الكادحة البائسة ما برحت كذلك تعانى شَظَف العيش وسوء الحال ، فلم تجد « تيودورا » خيراً من حَفْل السِّباق تلهى به الشعب ، وتلك عادة يعتمد عليها كثيرٌ من الملوك والحكام ، وتجد هوًى فى نفوس الشعوب ، فهى تمكّنهم من الاستمتاع بمشاهدة آيات البطولة والإقدام، متجلّية فى أولئك الأبطال الصَّنَادِيد راكبي المركبات الصغيرة المكشوفة، وفى أيديهم أرسان الجِياد العتاق، والسياط المضفورة، يُلْهِبُون بها ظهور الجِياد، فتطير بهم دائرةً حول مَيْدان السباق كأنها الرياح بل تسابق الظنون ، فكم تحدّى الفارسُ الفارسَ، وكان فى ذلك التحدِّى النَّصر المبين أو الموت الزؤام ، وكم انقلبت المركبة براكبها وهى تجتاز المنعطف فى سرعةٍ مخيفة ، فسقط المتبارى، وداسته دواليبُ المركبة أو سنابكُ الخيل، فهلل فريق من الجمهور، وترنّح طرباً كمن ثَمِلَ برؤية الدم المسْفُوح وعبيره الفوّاح .

ومثْلُ ذلك السباق الذى يقسم الجمهور إلى معسكرين : معسكر للخُضْر ، وآخر للزُّرق، يُتيح لأفراد الشعب مُتْعةً كبيرة هى متعةُ المقامرة ، ففريق الخُضْرِ يراهن على فوز فرسانه، وفريق الزُّرق يتحدّى ذلك الرهان، وتجرى المراهنة بين فردٍ وفرد، وبين جماعة وجماعة، وكل يأمل أن يَقْتنِى من وراء تلك المراهنة، كَبُرَ مبلغها أم صغُر، غنيمةً باردة تُدِرُّ عليه المال

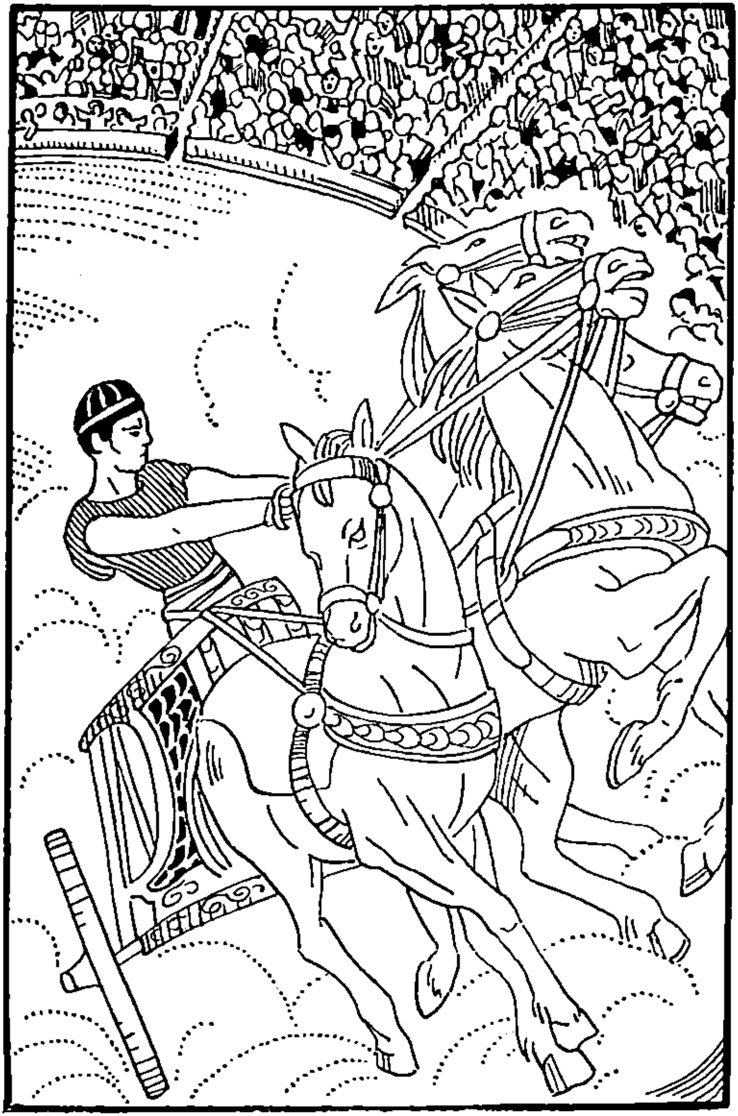

فى غير ما جهدٍ ولا عناء .

عمدت « تيودورا » مرّة إلى إشغال الشّعب بمباهج السباق، وها هى ذى بعد سنتين أخريين من السباق الأول تُضطرُ إلى إقامة حفل جديد من أحفال السّباق، تشغل به الشعب عما يعتمل فى صدره من أفاعيل الضّيق والضّنْك والتذمُّر .

وضربت « تيودورا » موعد اليوم الحادى عشر من شهر يناير من عام ٥٣٢ لبدء أيام السّباق، وقرّرت ، كما هى العادة ، أن يدوم السّباق سبعة أيام متوالية ، ومنذ صباح اليوم الأول أقبل الجمهور إقبالاً شديداً على المدرّجات التى تحيط بمَيْدان السباق من جهاته الثلاث فامتلأت به بل ازدحمت ازدحاماً ، وكانت الجهة الرابعة فى صدر الميدان مخصّصة بمقصورة الإمبراطور والإمبراطورة ، تحفُّ بها مِنَصّات وصفاء الشرف والوصيفات ، وشُرُفات النبيلات والنبلاء وكبار رجالات الدولة ونسائهم . وكان وراء كل مدرّج من المدرجات الثلاثة ، أسوارٌ عالية تستند إليها وتدور مع الميدان، فى حين كان المدرج الإمبراطورى المزيّن بالأعمدة العالية من الرُّخام ، يستند إلى أسوار القصر الإمبراطورى ، قام فى وسطها باب ضَخْم من الحديد يدخل منه الإمبراطوران وحاشيتهما والكبراء والكبيرات ، إلى حيث يحتلُّون المقاصير والشُّرُفات والمقاعد من المدرّج الرابع فى صدر الميدان .

وفى منتصف الميدان ، تمَقَتْ مِسَلّةٌ فرعونية من الصخر الوردى تعانق

السماء ، جيء بها منذ نحو قرن ونصف من هيكل « هليو بوليس» بمصر ، ويرجع عهدها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد رفعت على قاعدة من الرخام الأبيض نقشت عليها صور السباق ، وقام على بعد منها عمود أفعوانى أتى به من هيكل « أبولون» فى « دلف » المدينة اليونانية التى اشتركت مع إحدى وثلاثين مدينة أخرى فى قتال الفرس وانتصرت عليهم ، ويرجع عهد هذا العمود إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد صُبَّ من الشَّبَه (البرونز) على شكل حيَّات ثلاث متشابكة الأجسام ، التفَّتْ واحدةٌ فوق أخرى ، وانتهت رءوسها الثلاثة عند قمَّة العمود يحمل كلٌّ منها إناء من الذهب .

وانتهت الأيام الستّة الأولى من السّباق ، ولم يعكّر صَفْوها حادثٌ من الحوادث ، فقد كان النصر يروح متنقّلاً بين معسكر وآخر ، يكلّل هام الفرسان الخُضْر مرّة ، ويحل فوق رؤوس الزُّرق مرّة أخرى وهكذا دواليك .

واتفق أن عاد «بلساريوس» إلى العاصمة بجيشه المنتصر فى فجر اليوم السابع من أيام السباق ، فرحبت به « تيودورا » وزوجها ترحيباً جميلا ، وخلعا عليه حلل الثناء والشكر ، وخصّت « تيودورا » صديقتها « أنطونينا » زوجة « بلساريوس » بالتحف السنية .

على أن هناك رجلاً فى العاصمة لم ينظر إلى عودة « بلساريوس » وجيشه بعين الرضى والارتياح ، بل إنه عند ما فوجئ بذلك ، حَرقَ الأرَّمَ غيظاً ، وقذف من فيه الشّتائم واللّعنات ، ذلك الرجل هو « حنّا القبدوكى » .

لم يَدَّخِرْ « حنا القبدوكى » وسْعاً منذ أقيل من منصبه ، فى تحيُّن

الفرصة التى تبلغه مأربه ، وتشفى غليلَه من حرّ الثأر والضّغينة ، وكان كلّما رأى «تيودورا » تُمعِنُ فى طغيانها ، بَشّرَ نفسه بقرب يومِ الثأر ، وتوقّع لغريمته سُوءَ المنقلَب ، على أن تلك البشرى وذلك التوقع ، ما كانا يتعدّيان فى أول الأمر حيّز تفكيره ومنفرَج شفتيه ، ولكنه أصبح فى الأيام الأخيرة أرهَفَ عزماً ، وأشدَّ تصميمًا على أن يحبك مؤامرته ، ويدبّر خُطَطَها ، ويمضى فيها حتى النهاية ، فإما أوصلته من الدولة إلى مكان الصدْر وإما غيّبته فى ظلمات القبر .

فبدأ منذ حينٍ يختار أعوانه وشركاءه ممّنْ كانت له عليهم يد بيضاء فى سابق عهده ، أو ممّنْ يعرف أن صدورَهم تغلى فيها مراجلُ الحقد على الإمبراطور والإمبراطورة ، وبدأ كذلك يُكثر من التردُّد على الأسواق الشّعبية ، ومباءات الفقراء والعاطلين ، يهيج كوامنَ نفوسهم بكلمات من نار ، كلما وثق بأن لا عين ترقبه ولا أذنَ تسمعه ، واصطفى كذلك لمثل هذا العمل نَفَراً من البائسين ، زوّدهم بالمال سِرًّا ، وأطلقهم ألسنة سوء فى طول العاصمة وعرضها ، ينهشون عرض الإمبراطور والإمبراطورة ، ويُذْكون نار الفتنة فى نفوس الشعب .

كان « حنّا القبدوكى » قد قرّر فيما بينه وبين نفسه ، أن يتّخذ من اليوم السابع والأخير للسباق ، فرصةً لإشعال نيران الثورة ، فلمّا علم برجوع « بلساريوس » والجيش ، اصفرَّ وجهه وصرّ على أسنانه غيظاً وحنقاً وودّ لو ينقَضّ على «بلساريوس» ويعصر عنقه بيديه ، فقد حال بينه وبين

العرش منذ أربع سنوات ، وها هو ذا يرجع فى اليوم الذى تخيَّره للعصْف بصاحب التّاج وصاحبته، ولكنه عند ما هدأت ثائرته قليلاً ، عزم على أن يمضى مع ذلك فى خُطّته فقد قدَّر أن يكون حول ميدان السباق نحو من مائة ألف متفرّج ، نصفهم من الرعاع والعاطلين ، فحسْبُ الفتنة أن تدبّ فى صفوفهم حتّى يختلط الحابل بالنّابل، وتشيع الفوضى والاضطراب فما عليه عندئذ إلا أن يمشى فى طليعتهم إلى القصر الإمبراطورى ، فيتبعوه راضين مزمجرين ، ولن يستطيع الجند القلائل المنتشرون فى ميدان السباق وساحات القصر ، أن يصدّوا أمواج ذلك البحر البشرى .

وارتاح « حنا القبدوكى » إلى هذا التعليل، فخفَّ إلى ملابسه يرتديها على عجل ثم غادر منزله وسار إلى ميدان السِّباق .

٨

استيقظت « تيودورا » فى صباح اليوم السابع من أيام السباق متعَبَةً منهوكة القوى ، مع أنها أوَتْ ليلة أمس إلى فراشها فى ساعةٍ مبكّرة ، لتجدّد بالرقاد نشاطها وقواها ، فشهودها السباق أياماً ستةً متوالية ، كان قد أضنى جسمها الغَضّ الناعم ، وأثقل كاهلها نصباً وإعْياءً .

وجاءتها على الفور وصيفتها « تينا » فى سِرْبٍ من الخادمات ، ليُعْنَيْن بزينتها ، ويساعِدْنها على ارتداء ثيابها ، ويجلونها أجمل جلوة قبل الذهاب إلى مقصورتها فى ميدان السباق .

وبينما كانت الخادمات يصفّفن شعرها ويُرَجِّلْنَهُ بالمسك والعنبر ، سألتها وصيفتها « تينا » قائلة :

— « أية حلة تؤثرين اليوم يا صاحبة الجلالة ؟ » فقالت « تيودورا » :

— « أوثر أن ألبس اليوم يا " تينا " حلتى الأرجوانية المحلاة بنسور الذهب » . فقالت « تينا » :

— « سمعاً وطاعة يا صاحبة الجلالة » .

وفرغت الخادمات بعد نحو ساعة من تزيين صاحبة الجلالة ، فصرفتهن « تيودورا » وأخذت تميس مختالة فى غرفتها ، تنقل نظرها فى المرآة بين تاجها المرصع بالجواهر ، وحلتها الأرجوانية المزركشة بنسور الذهب ، وبين ما تتحلى به من درر ولآلئ ، وقبل أن تغادر مخدعها ألقت آخر نظرة على مرآتها الوفية ، وتطلعت فيها إلى وجهها فأعجبها بهاؤه ، وإن تكن قد شابت ذلك البهاء مسحة من اصفرار ، هى أثر الجهد والعناء فى أيام السباق الماضية .

وانتقلت من مخدعها إلى البهو الملاصق له ، تنتظر زوجها الإمبراطور ، لينزلا معاً إلى حيث احتشد فى القصر الرجال والنساء من حاشية الإمبراطورين وكبار الرجالات ، فلما استتب بها المقام فى ذلك البهو ، مثل بين يديها حاجبها الخاص ، وأنهى إليها رسالة شفوية من « أنسطاس » يقول لها فيها إن الهمس يدور على أن سيقع اليوم فى ميدان السباق حدث من الأحداث ، فعلى محافظ العاصمة أن يضاعف عدد الشرطة والدرك ، ويقول لها فيها أيضاً إن عدداً كبيراً من السفلة والرعاع ، ممن يعتقد أنهم من أتباع « حنا القبدوكى » المحافظ السابق ، قد بكروا إلى ميدان السباق

واحتلّوا أماكنهم متفرقين فى المدرجات الثلاثة، وهؤلاء يُخشَى شرُّهم، وإنْ تجنّبَ المحافظ السابق لقاءهم فى الأيام الأخيرة.

فشكرت «تيودورا» الحاجب، وحمّلته شكرها إلى «أنسطاس» وأمرَها إلى محافظ العاصمة بمضاعفة عدد الحرس حول القصر وفى أرجاء ميدان السباق، وقررت فى نفسها أن تصفّى غداً حسابها مع المحافظ السابق وتبعث بروحه النجسة إلى زبانية الجحيم. غير أن تحذير «أنسطاس» الشيخ الحكيم اليقظ. أثار فى نفسها الوساوس، فتذكّرت كيف نصَحها بعد ارتقائها العرش بأيام قلائل. أن لا تغترّ بفرحة الشعب وتهليله. فقد ينقلب فرحُه إلى غضبة جارفة إذا رأى بنتَ الشعب التى رضى بها إمبراطورة عليه. لم تحتفل بالشعب ولا رفعته من حَضيض الفاقة إلى المستوى المأمول من العيش الكريم.

ضاقت «تيودورا» ذرعاً بهذه الأفكار السُّود، وكادت تثور فى وجه هذا الشعب الذى يحاسبُها حساباً عسيراً ولمّا يمض عليها فى سرير الملك غيرُ سنواتٍ أربع، فلم يهدئ من روعها قليلاً إلا علمُها برجوع «بلساريوس» على رأس الجيش الذى رابط فى ضواحى العاصمة.

وقطع على «تيودورا» حبلَ تفكيرها. دخول صديقتها «أنطونينا» عليها فرحةً مبتهجة برجوع زوجها «بلساريوس» منصوراً على أعداء الإمبراطورية، فحيّت الإمبراطورة تحيّةَ الإجلال فقبّلتها «تيودورا» وقالت باسمة:

ـ «كل قَسَمَةٍ من قَسَمات وجهك يا" أنطونينا" تدلُّ على قلبك الفرح ونفسك الطروب » . فقالت « أنطونينا » فى شىء من الخجل :

ـ « مولاتى لقد غاب عنى أربع سنوات ثم إنه ما كاد يلقانى وألقاه حتى استدعاه جلالة الإمبراطور إليه » . فقالت « تيودورا » :

ـ « لعلّه يستوضحه تفصيل ما أجمل من أخبار المواقع والمعارك . . . ها هو ذا الإمبراطور ومعه زوجك يا حبيبتى » .

وأقبل« جستنيان » يتهادى فى الدِّمَقْسِ والحرير وشارات الذّهب ، ومشى وراءه « بلساريوس » ببزّته العسكرية ، وقد تحلّى صدره بالعدد الوافر من الأوسمة الرفيعة ، فحيّا الإمبراطور « تيودورا » وصديقتها ، وانحنى «بلساريوس» أمام الإمبراطورة فى خشوعٍ وإجلال ، فحيّته باسمة ورحّبت بمقدمه ، ونزلوا جميعاً إلى الطبقة الأولى من القصر ، حيث كان فى انتظارهم عظماء الدولة وعظماتها فخرُّوا كلهم راكعين إجلالاً للإمبراطور والإمبراطورة ، وسار « جستنيان » وعن يمينه « تيودورا » إلى الباب المفضى إلى ميدان السباق ، فما كادا يبرزان للجمهور حتى دوّت أركان الميدان بالهتاف والتصفيق والتكبير ، فتبسمت « تيودورا » مغتبطة وسَرَّها هذا الاستقبال الكريم ، فقالت فى نفسها لعل « أنسطاس » واهم فيما رأى وسمع .

وأشار « جستنيان » بيده إشارةً معلومة ، فدوّى النفير معلناً بدء السّباق ، فتقدمت ستُّ مركبات ، واصطفّت أمام مقصورةِ الإمبراطور ، يركب ثلاثاً منها فرسانٌ ارتدوا الصِّدار الأخضر ، ويركب الثلاث الأخرى

فرسانٌ لبسوا الصِّدارَ الأزرق ، فالتفتوا جميعاً إلى ناحيةِ الإمبراطور والإمبراطورة ،وأدَّوا التحيّة ، ثم استداروا إلى خيولهم الصاهلة المهمهمة المتحفّزة إلى الطيران .

وأشار « جستنيان » بيده إشارة ثانية ، فدوَّى النفير للمرة الثانية، فأرخى الفرسان الزمام للجياد ، فانطلقت تنهب الأرض انتهاباً .

واتفق أن انقلبت مركبتان من مركبات الفريق الأخضر عند المنحنى ، فسقط فارساهما متمرّغين بالتراب ، فصاح جمهور الفريق الأزرق صيحات النشوة والنصر ، وأجابه جمهور الفريق الأخضر بصرخات التحدّى والصفير ، على أن ذلك لم يَحـُلْ دون استمرار السباق ، فلما رأى الفريق الأخضر أن الدائرة ستدور عليه ، وأنه سيخسر رهانه ، وأن مركبته الوحيدة الباقية لن تقوى على شقّ غبار المركبات الأخرى الواقفة فى وجهها سدًّا منيعاً ، تمنعها أن تنفلت منها وأن تتجاوزها قيد خطوة ، ثارت ثائرته ، وبلغت زعقاته عـنان السماء .

وفى لحظة واحدة وقف نـَفـَرٌ من الرجال فى كلّ مدرَّج من المدرّجات الثلاثة ، كأنما كانوا جميعاً على ميعاد، وصاحوا يخاطبون الإمبراطور :

— « مُرْ يا صاحب الجلالة بوقْفِ السباق فالقِسْمة غير عادلة » .

وتكرَّر هذا الصياح ، وانتقل من فمٍ إلى فم من معسكر الخُضْر ، ورد عليه معسكر الزُّرق على ألسنة نفرٍ من الرجال ، وقفوا هم أيضاً وسط المدرَّجات الثلاثة ، وصاحوا يخاطبون الإمبراطور .

ـ «كلا يا صاحب الجلالة فليس من حقك وقفُ السباق ، فاتركه يجرى إلى غايته ، فالنصر حليف الشُّجعان » .

وكانت مركبات المتسابقين فى هذه الأثناء تتابع جريها بل طيرانها ، ويحدّق « جستنيان » فيها دون أن يهمّ بوقفها كما يطلب معسكر الخُضْر ، وكانت « تيودورا » غير مرتاحة لصراخ الجماهير ، ولا إلى تلك الجرأة التى دفعت ببعض الناس إلى مخاطبة الإمبراطور بلهجة لا تخلو من الوقاحة .

وربطت « تيودورا » بين تحذير « أنسطاس » وقيام أولئك النَّفَر من المتفرجين فى لحظة واحدة يخاطبون الإمبراطور ، ويطلبون إليه وقْفَ السِّباق، وبين قيام نفر غيرهم يردون عليهم ويطلبون من الإمبراطور متابعة السباق، بلهجة لا تقلّ عن لهجة أولئك جرأةً ووقاحةً . ربطت « تيودورا » بين هذا كلِّه ، فعلمت أن « أنسطاس » لم يكن واهماً، وأن وراء هذه البوادر خطّةً أحكَمَ تدبيرَها «حنّا القبدوكى» فباتت تترقّب بين لحظة وأخرى وهى واجمة واجفة القلب أن يتطاير شرر الفتنة ، ويمتدّ لهبها إلى هذه الجموع الزاخرة .

ووصل السباق إلى مرحلته الأخيرة، وفاز بقَصَب السَّبْق فارسٌ أزرق فعلا هتاف فريق ، وارتفع صفير فريق ، وكان على الإمبراطور أن يعلن نتيجة السباق ، فنهض واقفاً على درجة عرشه ، فساد الصَّمت قليلاً ، وتوقّع كل فريق أن يجد فى كلمات الإمبراطور سَنَداً لرأيه ودَحْضاً لحجّة الفريق الآخر .

وتكلم الإمبراطور وأعلن فوز الفارس الأزرق ، فضجّت الدنيا ،وقام الناس وقعدوا ، وهم ما بين كاسبٍ وخاسر ،واشتد الهَرْجُ والمَرْجُ ، وسادت الفوضى وعمّت الجلبَة ،فهذا يناقش ذاك ، وجارٌ يهدّد جاره ، ونساء زاحَمَهن الرجال فأخذن يولولن،ويناديْن بالويل والثّبور وعظائم الأمور ، ودهش « جستنيان » من هذه الحال التي ظهر عليها جمهور المتفرجين فالتفت إلى « بلساريوس » الجالس إلى شمال عرشه وقال له :

— « يلوح لى أن الشعب اليوم ثائر الأعصاب ، ينوء تحت وطأة النـَّزَق والتبرُّم » . فقال « بلساريوس » :

— « لا تخش بأساً يا صاحب الجلالة ، فهذه حال الشعوب عند ما يزدحم بها مكان واحد » .

ونهض الإمبراطور والإمبراطورة إيذاناً بانتهاء حفل السباق ، وتوجَّها إلى الباب المؤدى إلى القصر ، يتبعهما « بلساريوس» وجمهرة النبلاء والكبراء ونساؤهُم ، وبلغت الجرأة والتمرد بمختلف طبقات الشعب ، أن شيّعوا ذلك الموكب الإمبراطورى بالسباب واللعنات .

وما خفِى عن « تيودورا » أن السماء تنذر بشرٍّ مستطير ، وأن الصَّخَب لم ينبثق عن فريق من الجمهور ساخطٍ على نتيجة السباق، وإنما انبثق ، حسبما تعرف،عن فتنة دبَّرها «حنا القبدوكى» فلابُدَّ إذن من قَمْعِ الفتنة والضَّرْب على أيدى مدبّريها والقائمين بها، فما إن بلغت ردهةً من ردهات القصر ،حتى انفردت بالإمبراطور « جستنيان » ودعت إليهما « بلساريوس»

ومحافظ العاصمة وبعض المخلصين من رجال البلاد ممن لا تَرقَى إليهم الشكوك والشبهات ، فابتدرتهم قائلة :

ــ « إن الموقف جدُّ خطير أيها السادة ، إن وراء هذا الصَّخَب والفوضى فتنةً أحكَمَ فتلَ حبالها " حنا القبدوكى " ونحن لا نزال فى مستهلّها فإن لم نخنقها فى مهدها فسوف نرى لها عواقب وخيمة » . فقال « جستنيان » :

ــ « ما إخالها فتنة ولا ثورة وإنما هو حنق بعض النفوس على نتيجة السباق ، وكيفما كان الأمر فرجال الشرطة كفيلون برد الأمن إلى نصابه ، أليس كذلك يا حضرة المحافظ ؟ » فقال المحافظ :

ــ « إن رجال الشرطة يا مولاى ساهرون على الأمن ، وإنهم فى عددهم القليل ، لا يستطيعون صد جموع من البشر تتدفق عليهم تدفّق السَّيْل وإنهم بعصيِّهم ولو غلظت ، لأعجز من أن يدفعوا عشرات الألوف من الصاخبين الهاجمين » . فقالت « تيودورا » :

ــ « لا قِبَل لرجال الشرطة بدفع عدوان هؤلاء الثائرين . . . »

وبلغت فى تلك اللحظة مسامع المجتمعين صيحات مختلفة مُنْكَرة ، من مثل : ليسقط الإمبراطور . . . لتسقط « تيودورا » الفاجرة ! . . . ليسقط الطغاة أكلة لحوم الفقراء ! . . .

فامتُقع لون « تيودورا » واضطربت شفتاها غضباً وحَنَقاً ، فاستدعت رئيسَ حرسِ القصر ، وطلبت إليه أن يستوثق منْ أرتجة جميع أبواب القصر

ومزاليجها، ويوزع الحراس على الأبواب والمنافذ والثّغرات ، وأن يأمرهم بإطلاق السهام على كل من تسوّل له نفسه الهجوم على القصر ، فاستوقفه « جستنيان » وقال مخاطباً « تيودورا » :

— « لن أسمح بأن يطلق فريق من شعبى النار على الفريق الآخر » . فقالت « تيودورا » مغضبةً محتدّةً :

— «إنك تشترى بذلك نفسك وعرشك وإلاذُ بِحتَ ذَبْحَ النّعَاج! »

وأشارت« تيودورا » إلى رئيس الحرس إشارة الانصراف ، فمضى يُنَفِّذُ أوامرها ثم التفتت « تيودورا » إلى « بلساريوس » وقالت :

— « عرفتُ أن الجيش مُرابطٌ فى ضواحى العاصمة ، وأنك دخلت القسطنطينية بألف جندى شاكى السلاح ، فهل يكفيك هذا العدد لقمع الفتنة واستتباب الأمن ؟ » فقال « بلساريوس » :

— « بأقلّ من هذا العدد يا صاحبة الجلالة ! »فقالت « تيودورا » :

— « أعرف شجاعتك وشجاعة جيشنا ، على أن من صواب الرأى أن نتوقّع أسوأ الأمور ، وأن نتخذ لها الحيطة والحذر ، فعليك أيها القائد العظيم أن تسارع إلى جيشك، وتعود منه بستة آلاف مقاتل مدجّجٍ بالسلاح ؛ وعند ما تصل به إلى قلب العاصمة فأخبرنى أبلغك أوامرى » .

فأدى بلساريوس التحية العسكرية للإمبراطورين ، وطار إلى تنفيذ أوامر « تيودورا » ، وكان « جستنيان » فاغراً فاه دهشةً وذهولاً كالمستسلم إلى مشيئة الأقدار . . .

٩٠

بلغت الثورة ذِرْوَتها فى ذلك الجمهور الهائج ، فانحدر من المدرَّجات وملأ الميدان من أدناه إلى أقصاه ، وهو يجأر ويزمجر ، ويهدد ويتوعّد ويهتف أبشعَ الهُتاف ، ولئن بدأ ذلك الهيجان بمشاجرات نشبت بين أنصار الخُضْر والزُّرْق ، يؤيد كلُّ فريق فيها دعواه بقوة سواعده وحناجره ، لقد انتهى بقدرة قادر إلى ثورةٍ عاصفة على الإمبراطور وزوجته ، وكان لمحافظ العاصمة السابق « حنا القبدوكى » ولأنصاره المنبثّين فى الجمهور اليد الطُّولى فى توجيه ذلك الهَيَجان .

ورأى « حنا القبدوكى » أن الفرصة الذهبية التى طالما حلم بها وتمنّاها قد واتته على أنجح ما يروم ، فنزع عنه برقع الخفاء والاحتجاب ، وظهر

سافر الوجه والغرض ، وتزعم وهو فى محله من المدرّج جمهوراً كبيراً من الهائجين ، وأخذ يذكى فيهم لَظَى الحقد على الإمبراطورين .

وعلى حين فجأة وجد نفسه بإزاء الشيخ « أنسطاس » وسمعه يهدّئ ثوراتهم ، ويهيب بهم إلى التعقّل والسكون ، فخشى المحافظ السابق أن يكون لكلام الشيخ أثره فى النفوس ، فتفلت من يديه تلك النهزة الثمينة ، فاغتنم فرصة تألب نفر من الهائجين حول الشيخ ، وتزاحمهم بالمناكب ، وهبوط غيرهم من أعلى المدرّج إلى الميدان، ممن كان لا يزال قابعاً فى مكانه فتسلّح بالجبن والغدر واستدار خلْف الشيخ « أنسطاس » وطرحه أرضاً وأهوى بكلتا يديه على عنقه يضغط بهما عليه ضغطاً شديداً ، والشيخ على قوته يتململ ويضطرب بين أقدام الدائسين عليه ، وتمنعه عاهته من النهوض والدفاع عن نفسه ، فما تركه ذلك الوحش الآدمى ، حتى فاضت روحه إلى بارئها ، فذهب ضحية إخلاصه لـ « تيودورا » التى عرفها طفلة وحماها يانعة ، ووَفى لها إمبراطورة .

ووقف « حنا القبدوكى » هنيهةً ذاهل الرشد ، مذهوبَ الجَنان ، ولكنه سرعان ما رجع إلى نفسه ، فهبط مع الهابطين إلى وسط الميدان ، وهاله أن يرى أكثر من نصف الجمهور قد غادر ميدان السباق على حين تجمهرت البقية الباقية فى المدرّج المخصص بالكبراء والعظماء ، وهى تواصل الهتاف بسقوط الإمبراطور والإمبراطورة ، فدلَف إلى ذلك المدرج ، وصعد فيه حتى وصل إلى المقصورة الإمبراطورية

واستوى واقفاً على عرش « جستنيان » ، وشرع يخطب الجماهير منددّاً بالإمبراطور وزوجته ، ناعتاً إياهما بالظلم والقسوة .والجشع والسلْب ، والاستبداد والطغيان ، فكانت الجماهير ترد على كلماته بهتاف يشقّ دويّه أجواز الفضاء ، وهى تردّد صائحة :

— « ليسقط الإمبراطور المستبد ! لتسقط الإمبراطورة الفاجرة ! »

وأجال « حنا القبدوكى » نظره فى تلك الجموع الزاخرة ، فقدّر أنها تستطيع اقتحام القصر ، وإن تكن عزلاء من السلاح ، وماذا عليه لو مات نصف أولئك الهاجين وظَفِر هو بأمنيته ولُبانته، ثم وقع بصره على تلك المدرجات الخاوية الخالية فقال فى نفسه : لو حطّم الجمهور هذه المدرجات ، لأمدّته بقطعٍ وألواحٍ من الخشب والحجارة تغنيه عن الرّماح والسهام والسيوف فى مهاجمة القصر والاستيلاء عليه فتابع كلامه وقال :

— « يا شعب "بيزنطة" الحر الكريم ، إلامَ نذعن للطغيان ؟ ! وحتّام نصبر على المكروه والأذى؟ ! أيجوع الشعب ويُتْخم أصحاب الجاه والسلطان ؟ ! أيدفع الشعب الضرائب الباهظة ويتمتع بها النبلاء والعظماء؟! أتُقتّل أبناؤنا فى أقاصى الأرض وما لنا أى مغنم فى تلك الحروب التى لا تنتهى ؟ ! من رأس هذا البلاء ؟ أليس هو الإمبراطور ؟ ! »

فقاطعته الجماهير صائحة : — « الموت للإمبراطور ! »

فغلب السرور على قلب « حنا القبدوكى » من استجابة الجماهير لاستفزازه ، وحكمها على الإمبراطور بالموت ، فأراد أن يحقق الشقّ الثانى من مطمعه فقال :

ـ « ولا ننس أن هذا الإمبراطور ألعوبة ٌ فى يد امرأة ، فقد أرخى لها زمامه فقادته إلى الموبقات ، وإلى ركوب العسف والاضطهاد ، إرهاقاً للشعب ، وتحطيماً لقواه، وابتزازاً لأمواله فى سبيل تبرجها وتزينها وتحليها باللآلئ والجواهر ! » فقاطعته الجماهير مرة ثانية وهى تجأر وتصيح :

ـ « الموت للإمبراطورة ! » واستأنف « حنا القبدوكى » خطابه فقال :

ـ « تقولون : الموت للإمبراطور ! وتهتفون : الموت للإمبراطورة ! فهل فكرتم فى رجل يخلفهما ويكون رحيماً بالشعب ، عادلاً فى حكمه ، عاملاً على أن يوفر لكم العمل والغنى والإسعاد ؟ »

فصاح أحد أعوان الخطيب هاتفاً :

ـ « عاش " حنا القبدوكى " إمبراطور " بيزنطة " ! »

فرددت الجماهير هذا الهتاف فى شبه إجماع ، فقاطعها « حنا القبدوكى » قائلاً :

ـ « لا . لا . فما إلى هذا قصدت . فإنما أنا رجل ٌ مجاهد ٌ مثلكم فى سبيل الحرية التى حرمناها ، لقد ظلمتُ كما ظلمتم ، واضطُهدتُ كما اضطُهدتم ، وعُذّبتُ كما عُذّبتم ، فحسبى شرفاً أن أسير فى طليعتكم إلى إنقاذ العرش ممن لوثوه بالخزى والعار ، وتسليمه إلى رجل . . . »

فقاطعه أحد أنصاره وهتف صائحاً :

ـ « عاش " حنا القبدوكى " إمبراطور " بيزنطة " ! »

فارتفعت جميع العقائر بمثل هذا الهتاف ، فاختلجت جوانح « حنّا

القبدوكى » بِشْراً وطرَباً ولكنه كتم سروره مغيَّباً فى صدره وقال :

– « يا شعب " بيزنطة " الحر الكريم ؛ سأنزل عن أمركم ، وأرجو الله أن أكون عند حسن ظنكم ، ولكن هل فكرتم كيف تُنْقِذون العرش من الخوَنة المارقين ؟ إنهم وراء هذا الباب وهذه الأسوار ، محاطون بالحرس المدجَّج بالسلاح ، وأنتم عُزْلٌ إلا من إيمانكم القوى وعزيمتكم القعساء ، ولئن أعوزنا السلاح ، إن هذه المدرّجات سلاحنا فلنحطّمها ولنتسلح بأعمدتها وأخشابها وحجارتها ، ولنهجم بعد ذلك على هذا القصر الموبوء ؛ فشجاعتكم كفيلةٌ بتحطيم أبوابه وأسواره ، ولسوف ننصب فيه أعواد المشانق للطاغية وزوجته ، ولكل من يدافع عن الفجور والظلم والاستبداد . النصر لنا . . . نيكا . . . نيكا . . . » فردّدت الجموع :

– « نيكا . . . نيكا . . . »

ولفظة « نيكا » اسم إلهة النصر عند الإغريق فاستعملها الثوار شعاراً لهم .

ولم يكد « حنّا القبدوكى » يصل إلى هذا الحدّ من كلامه ؛ حتى تحوّلت الجماهير إلى المدرّجات تحطّمها وتتسلح بأعمدتها وأخشابها . كما قال لها خطيبها المِصْقع . فلما فرغت من مهمّتها ، نظم « حنّا القبدوكى » صفوفها ، وأوعز إليها أن تهجم على القصر ، فتدفّقت تدفّق السيل على الباب المفضى إليه . وعلى الأسوار المجاورة له ؛ يحاول فريق منهم أن يحطم الباب بالغليظ الضخم من الأعمدة والحجارة التى انتزعوها من المدرجات ،

ويحاول فريق آخر أن يتسلق الأسوار ، متخذاً من المناكب سلّماً يعلو به إلى رؤوس الأسوار ، ويهبط منها إلى القصر ، وكان الحرس من وراء الباب والأسوار شارعين أقواسهم وأسنّة رماحهم، وشاهرين سيوفهم ، ليعملوها فى رقاب الفوج الأول الذى يتلقّوْنه .

على أن فريقاً كبيراً من أولئك المتجمهرين ، ممن لم يكن يشاطر الثائرين آراءهم أو ممن أشفق على نفسه أن يتّهم بالخيانة العظمى، أبى أن يجارى الهاجمين على القصر، فغادر الميدان وانصرف إلى شأنه ، وكان بين هؤلاء رجال « أنسطاس» الشيخ المسكين الذى ذهب ضحيّة الغدر والخيانة فما إن وقعت أنظارهم عليه جثة بلا روح ، حتى هتف هاتف فى سرائرهم أن زعيمهم راح ضحية « حنّا القبدوكى » فإن لم يقتله هو نفسه فأحد أعوانه ، وهموا أن يهجموا عليه ويمزقوه إرْباً إرْباً ، وينتقموا لزعيمهم منه ، غير أنهم أدركوا أن لا قِبل لهم به وهو محاط بتلك الجموع الغفيرة ، تهتف له وتبايعه إمبراطوراً عليهم ، فاضطرُّوا ، وهم على مضض ، إلى إسكات قلوبهم الموتورة، وإرجاء انتقامهم حتى لو نجحت الثورة ونُصِّب إمبراطوراً على « بيزنطة » ، فانكبُّوا على زعيمهم بعيون دامعة ، وأفئدة مكلومة ، وحملوه من ذلك الميدان الرهيب إلى حيث واروْه فى التُّراب .

وامتنع القصر على الهاجمين ، فلم يستطيعوا مدة ساعات طويلة ، أن يفتحوا فيه ثغرة ينفذون منها إليه ، وكان منْ فى القصر كلما سمعوا زئير الثائرين ، والضّربات الشديدة التى ينهالون بها على الباب والأسوار ،

هلعت قلوبهم ، وارتعدت فرائصهم ، وتوقّعوا أن تنقضّ عليهم بين لحظة وأخرى جماهير الثوار فتفتك بهم فتكاً ذريعاً .

ولعل « تيودورا » كانت أشجع مَنْ بالقصر من الرجال والنساء على السواء، وإن يكن شعورها بالخطر الداهم قد وشّح وجهها بغلالةٍ صفراء ، يدل على ما فى جوانحها من اضطرابٍ مكتومٍ وخوفٍ كظيم . كانت « تيودورا » تعرف أنها من الموت على قيد شعرة ، ولكنها كانت ترجو أن يصل « بلساريوس » بالجيش فى الوقت المناسب ، فينقذ العرش وينجّى من معها من رجال ونساء ، غير أن هذا الخيط الرفيع من الأمل كاد ينقطع بتأخر « بلساريوس » وكانت تقول فى نفسها إن « بلساريوس » لو وصل إلى قلب العاصمة لأرسل ينبئها بوصوله كما أمرته ، وكيفما كانت الحال فقد عزمت على أن تواجه الثائرين لو سبقوه إليها ، وتبين لهم أنهم خدعة الخادعين ، وتذكرهم أن إمبراطورتهم إنما هى ابنةٌ من بنات الشعب ، وحسبهم ذلك مَسْحَب عزّةٍ وفخار ، فإن خذلها جمهور الثائرين فلتكن مشيئة القدر .

وفيما هى تناجى نفسها بمثل هذه المناجاة و « جستنيان » ينظر إليها خائفاً وجلاً على صباها الغض ، وجمالها الفتان ، فى حين كان بقية المحيطين بها من رجال البلاط غارقين فى صمت رهيب ، دخل عليها حاجبها الخاص مستأذناً لرجل من رجال « أنسطاس » فى المثول بين يديها فأذنت له فدخل وحيّا وقال :

– « مولاتى! لقد طفت بالمدينة قبل أن أمثل بين يدى جلالتك، فهالنى أن أرى معظم الجماهير التى كانت فى هذا الصباح تشاهد السباق، قد انتشرت فى أنحاء العاصمة واستسلمت إلى النَّهْب والسلب والتدمير والتقتيل » . فقاطعته « تيودورا » قائلة :

– « أما من أثر للجيش فى أنحاء العاصمة ؟ » فقال الرجل :

– « كلا يا مولاتى . إن الجماهير لم تكتف بالنَّهب والسَّلْب وقتل الأبرياء . بل عمدت إلى إشعال النار فى مختلف المبانى والمنشآت ، فأحرقت مجلس الشيوخ والمكتبات ودار المحافظة وكنيسة "آيا صوفيا" فالحرائق مشبوبة فى كل مكان، والمدينة كلها طُعْمَة للنيران . . . وفى ميدان السباق نحو من خمسة وعشرين ألف ثائر ، يتزعّمهم "حنّا القبدوكى" محافظ العاصمة السابق ، بعد أن بايعوه إمبراطوراً على "بيزنطة" وقد حطّموا المدرّجات ، وتسلّحوا بأعمدتها وقِطَع أخشابها ، وهم ينهالون بها على الباب والأسوار فإن لم يستطيعوا التصعيد فى الأسوار لعلوها الشاهق فاسرف يحطمون الباب و إن كان حديداً . ويسوءنى يا مولاتى أن أخبرك أنهم نذروا دمك ودم جلالة الإمبراطور . فاسمحى لى أن أشير على جلالتك وجلالة الإمبراطور بالهرب سريعاً قبل فوات الأوان ، حتى تهدأ الحال ويستتب الأمن . فرجال المرحوم "أنسطاس" » . . فجفلت « تيودورا » وسألت قائلة :

– « أمات "أنسطاس" ؟ ! » فقال الرجل :

— « قتله ” حنا القبدوكى “ أو أحد أعوانه، فنقلنا جثّته وأودعناها التراب فى بقعةٍ ندفن فيها موتانا » .

فأطرقت « تيودورا » حزينة ثم استأنف الرجل حديثه فقال :

— « إن رجال ” أنسطاس “ يا مولاتى منتشرون فى سفينة قد استولوا عليها، وأخضعوا بحّارتها لما يريدون ؛ وهى راسية غير بعيد من الباب الشرقى للقصر . فهلا عجلت يا مولاتى ، فقد ينحدر الثوار إلى الميناء ويحرقون السفن والمراكب » . فقال « جستنيان » وكان ملازماً الصمت :

— « نعمَ الرأى ! هيا يا ” تيودورا “ فلنبتعد الآن عن الخطر . ربما يرجع الأمن إلى نصابه ، فقائدنا ” بلساريوس “ كفيل بذلك . ولسوف نعود بعد قليل فنطرد الغاصب ونتبوأ العرش » .

وأمّن على هذا الرأى جميع السامعين ، على رجاء أن يصحبهم الإمبراطوران فى فرارهما . وإذا بـ « تيودورا » تقف وشرر الغضب يتطاير من عينيها الجميلتين وتوجه الخطاب إلى « جستنيان » قائلة :

— « إذا بدا لك يا صاحب الجلالة أن تهرُب من وجه شعبك . فافعل ما بدا لك . فهناك سفينة فى انتظارك . فاستقلّها ومن شئت من رجالك توصلك وتوصلهم إلى ديار الأمن والعافية . أما أنا فباقيةٌ هنا لأواجه الخطر وحدى . فإن قدّر لى أن أموت فميتة إمبراطورة على رأسها التاج وفى يدها الصولجان ! »

وأعقب كلامَ « تيودورا » صمتٌ عميق قطعه « جستنيان » قائلاً :

— « إذن نبقى معك يا صاحبة الجلالة . فوالله ما آثرت الحرب جبْناً

وخوفاً ، ولكن شفقة وإشفاقاً عليك ، فلئن كُتِبَ علينا الموت لنموتَنّ معاً ميتة الملوك العظماء . . . »

وكان « جستنيان » صادقاً فى قوله ، فحبه الشديد لزوجته هو الذى جعله يستبشر بالفرار ويرضى به ، فما كاد ينتهى من مقالته حتى اقتحم الباب على الحاضرين أحد الحرس وهو يصيح فى لهفةٍ وذُعرٍ :

— « مولاتى ! مولاى ! إن الباب المفضى إلى ميدان السباق قد بدأ يتزعزع وينخلع . . . »

وقبل أن يجيب أحد الحاضرين بكلمة عن هذا النبأ الذى انخلعت له القلوب ، دخل عليهم القائد « بلساريوس » فى بزته الحربية ، وهو مدجّجٌ بالسلاح ، فاقترب من « تيودورا » وانحنى أمامها طويلاً ثم رفع رأسه وقال :

— « اغفرى لى أولاً يا صاحبة الجلالة تأخّرى ، فقد اضطررت إلى الضرب على أيدى الثوار المنتشرين فى المدينة ينهبون ويسلبون ويحرقون المنشآت والكنائس ، واغفرى لى ثانياً عصيانى أمرك ، فما أبلغتك بوصولى إلى قلب المدينة لأنى رأيت أن الوقت أضيق من أن أنتظر وصول الرسل إليك وعودتهم إلىّ بأوامرك ، ولا سيما أنه قد بلغنى أن نحواً من خمسة وعشرين ألف ثائر يهاجمون القصر وعلى رأسهم " حنا القبدوكى " وأنهم يكادون يحطّمونه ، فالأمن فى المدينة قد استتَبّ ، ففى أنحائها ألفان من الجند يحمونها ، وعلى أبواب ميدان السباق خمسة آلاف جندى فى كامل عدتهم جئت بهم كسباً للوقت ، وقد ضربوا حصاراً شديداً على الثوار ،

بحيث لن يفلت منهم أحد ولو تعلق بأذيال الهواء . ولست أعتقد إلاّ أنهم كفّوا عن تحطيم الباب فراراً من خمسة آلاف رمح مشرعة فى وجوههم ، فماذا تأمرين يا صاحبة الجلالة ؟ »

عبثاً حاولت « تيودورا » أن تخفى مظاهر سرورها منذ رأت « بلساريوس » حتى فراغه من كلامه ، فقد اختفت من وجهها تلك الغلالة الصفراء من الهمّ والقلق ، وعادت قسماتها تتألّق بالحسن والصبا ، غير أنه لمع فى عينيها بريق مخيف ، فوجّهت الخطاب إلى « بلساريوس » وقالت :

— « سأنظر فيما بعد فى مسألة تأخرك وعصيانك أمرى ، ولقد يشفع لك فيهما وقفك للنهب والسلب والتدمير والحريق فى أنحاء العاصمة . . . كم عدد الثُّوار الذين يحاصرهم الجيش فى ميدان السباق ؟ ! » فقال « بلساريوس » :

— « نحو من خمسة وعشرين ألفاً يا صاحبة الجلالة . . . » فقالت « تيودورا » فى لهجة هادئة :

— « يُقْتَلون على بكرة أبيهم » .

فانحنى « بلساريوس » وحيّا وانصرف لينفذ أمر « تيودورا » ويقيم فى ميدان السباق مجزرة هائلة فظيعة .

وعقدت الدهشة لسان « جستنيان » فلم ينبس بحرف ، ثم انتحى ناحية من البهو وتجد يُصلّى ، أما « تيودورا » فغادرت البهو وصَعِدت إلى سطح أحد الأسوار المشرفة على ميدان السّباق تشاهد منه سَيْرَ المذبحة . . .

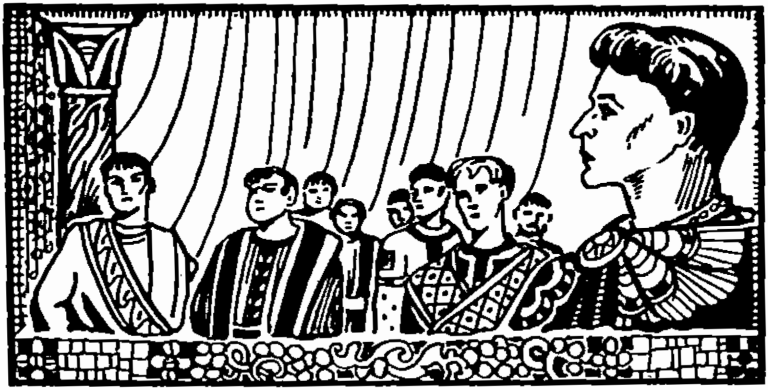

١٠

قضت « تيودورا » يومين طريحة الفراش بعد تلك المذبحة الرهيبة، تتراءى لعينيها أشباح القتلى وجثثهم، ويخالجها الأسف على أن ألجأتها الضرورة إلى العنف والقسوة ،ولكن ما ساورها قطُّ أيُّ شعورٍ بالنَّدَم ، وكانت لا ترى جُنَاحاً على المهدَّد بالقتل أن يبادر إلى قتل خصمه فى موقف الدفاع عن النفس .

ولئن سرَّها أن يكون « حنا القبلوكى » فى عداد القتلى ، لقد غمها أن يلقى « أنسطاس » صديقها الشيخ حَتْفه فى ذلك اليوم الرهيب، بيدِ سفَّاحٍ غدَّارٍ هو لا مشاحةَ « حنَّا القبلوكى » .

ونهضت « تيودورا » فى صباح اليوم الثالث قويّة نشيطة ، فاستدعت

صديقتها « أنطونينا » ووصيفتها « تينا » فشاركتاها في ارتداء حلّة سوداء، وهما أشد ما تكونان دهشة واستغراباً فقالت لهما :

– « ستصحبانني إلى أداء واجب مقدس » . فقالت « أنطونينا » :

– « إلى أين يا صاحبة الجلالة ؟ » فقالت « تيودورا » :

– « إلى قبر الشيخ " أنسطاس " ننثر عليه بعض الأزهار والرياحين، ونستمطر على جدثه شآبيبَ الرحمة والغفران » .

فسارت النساء الثلاث يصحبهن حاجب « تيودورا » الخاص إلى مكان قفر في بعض أنحاء المدينة، ووقفن خاشعاتٍ إزاء كومةٍ من التراب دفن تحتها ذلك الشيخ الوفيّ ، ونثرن فوقها الرّيحان ، وصلّيْن صلاةً قصيرة ثم عُدن إلى القصر آسفاتٍ حزينات ، فقد كان للشيخ في قلوب النسوة الثلاث مكانةٌ صادقةٌ جليلة .

وعُنيت « تيودورا » بنقل رفات الشيخ إلى ضريحٍ يليق بوفائه وإخلاصه ، وكانت تزوره بين الحين والحين آسفة مترحّمة .

وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي في العاصمة ، وخيّم الأمن على ربوعها ، وانصرف كلٌّ إلى شأنه وعمله .

ودخلت « تيودورا » يوماً على « جستنيان » في مكتبه الإمبراطوري ، فإذا هو محاطٌ بكوكبة من المهندسين يدرس وإياهم مناهجَ عدّةً للإنشاء والتّعمير ، فقد جنت الثورة على العاصمة جناية كبيرةً ، فتركت أغلب منشآتها خراباً ينعقُ فيه البوم، فاشتركت « تيودورا » معهم في البحث

والدراسة ، ثم التفت « جستنيان » إلى المهندسين وقال :

— « علينا الآن بدراسة مَنْهَج البناء الخاص بكنيسة " آيا صوفيا" تعلمون يا سادة أنها كانت كنيسة صغيرة بناها " قسطنطين" الأول ، ثم أحرقت فى عهد " أركاديوس" ثم جَدَّدَ بناءها " تيودوسيوس" الثانى ، وها هى ذى تحرق وتُهْدَم للمرة الثانية ، ولقد عزمت على أن أهدمها هدماً كاملاً ، وأضم إليها مساحة واسعة مما يحيط بها ، وأبنيها بناء عظيماً لتكون آية الآيات من قبلُ ومن بعدُ ، بحيث لا تقع العين ولن تقع على أجمل منها ولا أفخم ، منذ عهد أبينا آدم إلى أبد الآبدين » . فقال أحد المهندسين :

— « مولاى إننا نترك الكلام فى هذا لأعظم مهندسَيْن يفتخر العالم اليوم بعبقريتهما ، وهما المهندس " أنتيموس" من مدينة "ترالا" والمهندس " إيزيدورس" من جزيرة " ميله". إنهما فى غرفة الانتظار ، فهل تأمر يا مولاى باستدعائهما للمثول بين يديك يا صاحب الجلالة ؟ »

— « علىّ بهما فى الحال » .

ونهضت « تيودورا » ذاهبةً إلى حيث تنتظرها شؤون الحكم ، تاركةً لزوجها « جستنيان » أمر الاهتمام ببناء تلك الكنيسة التى يريدها آية الآيات.

وعند ما دخل المهندسان العظيمان ، ناقشهما « جستنيان » فى خطتهما وختم كلامه قائلاً :

— « أريد منكما أعجوبةَ الأعاجيب ، ولسوف أوفّر لكما ما تشاءان من الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة والدِّمَقْس والحرير ، أما الرخام

فسوف أجلبه لكما من جميع المعابد والهياكل الوثنيّة المنتشرة فى الشرق والغرب من أرجاء الدولة، وسأضع تحت إمرتكما عشرة آلاف عامل . . . »

وجرؤ أحد الحاضرين فسأل الإمبراطور :

– « مولاى إن ذلك يكلف أموالا طائلة فمن أين تأتى بها ؟ »

– « الله يعيننى » .

ثم نهض « جستنيان » إشارة إلى ارفضاض الاجتماع ، فاستأذن الحاضرون فى الانصراف ، فأذن لهم الإمبراطور بعد أن زوّدهم بإرشاده وتوجيهه ، وألحّ عليهم فى أن يواصلوا العمل ليل نهار ، وأن يفرغوا فيه أقصى تفنُّنِهم وعلمهم وجهدهم ، ليبهروا العالم بآية آيات الفن البيزنطى .

واستَمَرّ العمل قائماً على قدمٍ وساق مدة خمس سنواتٍ ، حتى نفض المهندسون والعمال أيديهم من تلك التحفة الفريدة ، وجعلوها أعجوبة الأعاجيب فى الفن البيزنطى .

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة خمسمائة وسبع وثلاثين ، احتفل احتفالٌ عظيم بافتتاح ذلك المعبد ، شهده جمهور غفير من الكبراء والعظماء وأفراد الشعب ، فلم يكد يحين الموعد المضروب حتى أقبل الإمبراطور والإمبراطورة وقد استوى كلٌ منهما فى مركبةٍ تجرُّها أربعة جيادٍ، وحفّت بهما خاصّة الخاصّة من عِلْيَةِ القوم، وتوالت بعدهما مركبات النبلاء وكبار رجال الدولة .

ولما بلغ الموكب ساحة الكنيسة ، ترجّل الإمبراطوران ورجال الحاشية

وخفّ إلى استقبالهما بطريرك القسطنطينية ولفيفٌ من الأساقفة والقسّيسين، ثم سار الموكب يتقدّمه «جستنيان» و«تيودورا» إلى الباب الإمبراطورى فاجتاز العتبة ودخل الكنيسة، حتى إذا وصل إلى وسطها اشرأبّ «جستنيان» بعنقه شاخصاً ببصره إلى قبّتها المضروبة على علوّ خمسة وخمسين متراً، والبالغ قطرها واحداً وثلاثين متراً، وهو أجرأ عمل هندسى قام به المهندسون حتى ذلك العهد، ونسى أنه فى بيت من بيوت الله، فصاح بصوتٍ لا يخلو من الغرور والكبرياء:

— «الحمد لله الذى رآنى أهلاً لأن أقوم بمثل هذا العمل العظيم . . . يا سليمان بن داوود لقد غلبتُك وقهرْتُك».

وهكذا تمخّضت الثورة وما أحاط بها من دمار، عن ميلاد أجمل أثرٍ للفن والجمال، وعن أفخم معبد للصلاة والعبادة * . . .

وانتهى الحفل وعاد الإمبراطوران وحاشيتهما من الرجال والنساء إلى القصر الإمبراطورى وتفرّق الكبراء وزُمَرُ الشعب، وما فيهم إلا المعجَب

---

* استولى محمد الفاتح على القسطنطينية فى التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣ وفى اليوم نفسه أصدر أمره بتحويل كنيسة «آيا صوفيا» إلى مسجد فصلى فيه بعد ثلاثة أيام من فتح المدينة أى فى غرة شهر يونيو من ذلك العام. وإلى هذا أشار أمير الشعراء أحمد شوقى عند ما وصف «آيا صوفيا» بقصيدة عصماء قال فى مطلعها:

كنيسة صارت إلى مسجد   هدية السيد للسيد

وبقيت «آيا صوفيا» مسجداً تقام فيه شعائر الدين الإسلامى حتى قررت الحكومة التركية فى سنة ١٩٣٥ تحويلها إلى متحف.

المدهوش بذلك الأثر العظيم الخالد .

وعندما خلت « تيودورا » بنفسها في مخدعها ، وشرعت وصيفتها « تينا » تساعدها على خلع زينتها وحليّها ، استدعت إليها صديقتها « أنطونينا » لتتجاذب معها أطراف الحديث ترويحاً عن النفس بعد ذلك المهرجان الذى أتعبها وأعياها .

وأقبلت «أنطونينا » إليها ، وكانت « تينا » قد فرغت من مهمتها فذهبت إلى بعض شأنها ، وجلست الصديقتان معاً على بعض الأرائك ، فافتتحت « تيودورا » الكلام قائلة :

— « إن " أيا صوفيا " أثرٌ خالد ، أليس كذلك يا " أنطونينا " ؟ »

— « إنها لكذلك ياصاحبة الجلالة! » فقاطعتها « تيودورا» موبّخة :

— « قلت لك غيرَ مرّة أن تناديني باسمى عند ما نخلو معاً، فلسنا فى خلوتنا إلا الصديقتين "تيودورا" و"أنطونينا" ألايسرّك أن ترفعَ الحُجُبُ بيننا ؟ » فقالت « أنطونينا» :

— حفظك الله ورعاك يا حبيبتى ، فلو كان فى الأرض سريرٌ أعلى من العرش ، وحليةٌ أرفعُ من التاج، لكنت جديرةً بهما دون منازع ، فما سوّدك الزمان على عرش "بيزنطة" وإنما سوّدتك نفسك العالية وقلبُك الكبير ،ولولم تكونى فوق مستوى البشر لما دانت لك الرّقاب ،ولما سُسْتِ هذه الدولة المترامية الأطراف بعبقرية منقطعة النظير حتى فى أعظم الرجال وأذكاهم . . . » فتبسّمت « تيودورا » وسرّها أن تسمع من صديقتها هذا

الثناء الخالص . ثم قالت :

— « إنك لتنظرين إلى بعين الرضى يا عزيزتى ! » فقالت « أنطونينا » :

— « دعك من التواضع يا حبيبتى ، فما عرفتك وديعة الفؤاد متواضعة القلب ، ولست ألومك فى هذا فأعباؤك الجسام تتناكر وخلة التواضع ، وما نجح قط ملك متواضع أو ملكة وديعة . . . إنك فى الظاهر شريكة الإمبراطور "جستنيان" فى الحكم والسلطان ، ولكنك فى واقع الأمر روح الدولة وقلبها النابض وعقلها المفكر . . . » فقالت « تيودورا » :

— « لا تبخسى الناس أشياءهم يا "أنطونينا" فالإمبراطور "جستنيان" لا ينى عن تعهد ملكه ورعاية شؤونه » . فقالت « أنطونينا » :

— « أتريديننى أن أحدثك حديث الصديقة للصديقة أم حديث وصيفة الشرف للإمبراطورة ؟ » فقالت « تيودورا » :

— « قلت لك إننى أوثر فى خلوتنا حديث الصديقة للصديقة » . فقالت « أنطونينا » :

— « إذن فاسمعى صوت القلب يحدثك ويناجيك . . . إنك يا "تيودورا" تحملين بدنك فوق ما يطيق . . . لقد قضيت هذه السنوات الخمس بعد الثورة وأنت فى عمل مرهق وجهاد مضن كأن ليس لبدنك وجمالك حق عليك . . . » فقاطعتها « تيودورا » قائلة :

— « أترين جمالى النضير قد ذوى وذبل يا " أنطونينا " ؟ تالله لو صدق رأيك لأكونن أشقى النساء . . . »

— « كلا وألف مرة كلا . فما زلت صاحبة هذا الجمال الغض

الفتّان الذى يسحر العيون ويخلب الألباب ، ولكن إذا استمررت فى جهدك وجهادك سِرْتِ إلى الكهولة والشيخوخة بخطواتٍ أسرع من الظّنّ ، وتملّكتك الأمراض فهى لا تشفق ولا ترحم » . فقالت « تيودورا » :

ــ « ما أنا يا حبيبتى إلا شريكة فى الحكم والسلطان ، أنهضُ بأعبائى نهوض الإمبراطور بأعبائه . . . » فقالت « أنطونينا » مقاطعة :

ــ « حَسْبُكِ . حسبك . واغفرى لى إخلاصى وصراحتى ، ماذا فعل الإمبراطور فى هذه السنوات الخمس ؟ شغل وقته كله فى الإشراف على بناء "آيا صوفيا" يتردد على العمال صباح مساء ، ويلاحظ أعمالهم ، ويشاركهم أحياناً فى وضع لبنة فوق لبنة ، وحَجَرَةٍ فُسَيْفِساء فوق أخرى ، كما يعقد الاجتماعات مع المهندسين والبنّائين يشاورهم ، ويشاورونه ، ويشاطرهم التفنن والابتكار » . فقالت « تيودورا » :

ــ « أنسيت مجموعة القوانين ؟ » فقالت « أنطونينا » :

ــ « كلا لم أنسها . . . إنه يعمل فيها منذ نحو عشر سنوات مع رئيس مجلس الشورى والقوانين . . . ولعلك أنت التى نسيت أن معظمَ تلك القوانين هى من وحْيِك وإلهامك ، ومع ذلك فقد سمّوها " مدونة جستنيان " . من ذا الذى سنّ الأنظمة واشترع القوانين فى إنشاء الملاجئ للبائسات الشقيات من الفتيات ؟ من ذا الذى أصدر المراسيم فى تشييد دور الشفاء والمدارس وبناء المصانع والمعامل ؟ من ذا الذى أنصف المرأة وضمن لها حقها الكامل غير المنقوص ؟ من ذا الذى كان السبب فى إلغاء القوانين

التى تفرق بين الطبقات ؟ ومن ومن ؟ . . . أنت فعلت هذا ولكن العمل نُسب كله إلى الإمبراطور فتَزَهِيَ به وقال : " لكأن مدوّنتى قلعةٌ من القلاع حبست فيها جميع القوانين القديمة " » . فقالت « تيودورا » :

– « أليس هذا واجب الملوك والملكات يا حبيبتى ؟ ! »

– « إنك تدفعين ثمنَ كل هذا يا عزيزتى من دمك وأعصابك وصحتك ، فهلاّ رأفت بشبابك ، وخففتِ من غُلوائك فى الاضطلاع بأثقل الأحمال ؟ ! » فقالت « تيودورا » :

– « إن ذلك فوق مقدورى يا حبيبتى ، فلن أتقاعس عن السهر على شؤون الوطن ما دمت قد نُصِّبْتُ إمبراطورةً على مصايره » . فقالت « أنطونينا » :

– « هذا ولم أحدّثك عن اهتمامك بالحروب والمعارك ، وإعلاء راية الوطن فوق قصىّ الممالك والبلاد » . فقالت « تيودورا » :

– « إن لى فى زوجك " بلساريوس " الباسل خير نصير ومعين فى توسيع رقعة الدولة البيزنطية ورفع شأنها ، ويعزّ علىّ يا حبيبتى أن غاب عنا فى حفل افتتاح " آيا صوفيا " ولكن ثوابه عند الله وفى أعين الوطن أجلّ وأسمى ، فبينا نحن نحتفل بالمهرجان تلو المهرجان ، إذا هو يحتفل فى ميادين القتال بكسب المعارك وأكاليل النصر » . فقالت « أنطونينا » :

– « إنه غرس يديك يا " تيودورا " » .

واختتمت الصديقتان حديثهما بقبلة طويلة ، طبعتها كل منهما على خد الأخرى ، ورمزتْ بها إلى المحبة الخالصة والوداد المقيم . . .

١١

لم تُغالِ « أنطونينا » عندما وصفت صديقتها « تيودورا » بأنها روحُ الدولة ، وقلبها النابض ، وعقلها المفكِّر ، فلقد جمع الله فى هذه المرأة العجيبة من علوّ الهمّة ، وحصافة الرأى ، وسمو النفس ، وشجاعة القلب ، ما لو وُزّع على أهل الأرض لكفاهم ، ولا غالت « أنطونينا » كذلك عند ما حذّرت صديقتها من مغبّة الإجهاد فى الفكر والبدن ، ولكن هل يجدى النصح فيمن خلقها الله كبيرة العقل، عالية النفس، واسعة الهمّة ؟ إنها لن تحفِل ببِدَنها إلا بمقدار ما تحفل المرأة الجميلة برعاية جمالها، وتلمُّس أسباب المحافظة عليه ، أما أن تغلّب الراحة على التعب ، والسلامة على العمل، والخمولَ على تحقيق أوسع المطامع ، فأبعدُ ما تكون منه امرأة

مثل « تيودورا » برغم نُصْح الناصحين المخلصين .

استعادت عرشَها بعد الثورة، فعُنِيت بتوطيد أركان الأمن والنظام فى أنحاء الإمبراطورية، ولعلها اعتبرت بما سبق الثورة وما تخللها من أحداث، أو لعلها تذكرت أنها ابنة الشعب، وأنها تقلَّبت مثله فى أحضان البؤس والفاقة، فيما مضى من الأيام، فآلت على نفسها أن تقفَ جهدها وحزمَها وذكاءَها على أن توفّر له حياةً هانئة سعيدة، يزينها المجد والعزة والسُؤْدد، فنشرتْ فى الربوع رايات العدل، وأصبحت تشهدُ المحاكمات، وترعى فيها سَير العدالة، وأصبحت تجلس للمظالم، وتتلقّى من أفراد الشعب العرائض والملتمسات، فتُنصِف المظلوم، وتعصِف بالظلوم، وصارت حفيّةً بالقضاء على البطالة ومعنيّة بتوفير العمل والرزق الشريف للعاملين المجدين، وكانت إلى هذا وذاك تشارك زوجها الإمبراطور فى إعداد « مدوّنته » وتقترح عليه سَنّ أعدل القوانين وأكمل الأنظمة، وتُمِدُّه بآرائها الحصيفة فى بناء « آيا صوفيا » دون أن تنتزع من فضْل فكرته الأولى، ولا فَضْل تنفيذها على أجمل الوجوه وأفخمها .

ورمتْ بأنظارها إلى أطراف الإمبراطورية، فطمعت أن تزيدها طولاً وعرضاً، فعقدت اللواء لأمير الجيوش « بلساريوس » وهو أطوعُ لها من بَنانها، وسيَّرَتْه إلى الفتح والغزو، أو إلى قمع الفِتَن وتأديب العُصاة، فقضى على حركة الانفصال التى قامت بها سورية ومصر، وأبقاهما بلدين طائعين من بلاد الإمبراطورية . وشن الغارة على جيوش البربر فى

شمال إفريقيا فحطمها تحطيماً فى سنتى ٥٣٣ و ٥٣٤ ، وتلقّى أمر « تيودورا » بعد ذلك فى الاستيلاء على جزيرة « صقليّة » فاستولى عليها بغير كبير عناء سنة ٥٣٥ ، ثم أوعزت إليه أن يزحف إلى إيطاليا فسقطت فى يده « نابولى » ثم « روما » ، وبقى فى تلك البلاد خمس سنوات فاتحاً غازياً حتى دانت له وأخضعها للدولة البيزنطية .

ولم يكن « بلساريوس » أميراً للجيوش فقط يأتمر بأمر « تيودورا » ويحقق لها مطامعها العسكرية، بل كان مُنَفِّذَ جميع رغباتها مهما دقّتْ وصعُبَتْ ، فحينما فتح « روما » ورغبت إليه « تيودورا » فى خلع البابا « سلفاريوس » لأنها كانت على غير مذهبه ، وتنصيب « فيجيليوس » على عرش البابوية مكانه ، لم يسألها عن السبب ولا ناقشها فى أمرها ، وإنما حقّق رغبتها ، وذهب فى تحقيق تلك الرغبة إلى أبعد حدود القسوة والعُنْف .

وبقى « بلساريوس » رجل « تيودورا » الأوحد وقائدها المبجَّل ، توجِّهه حيثما شاءت وكيفما أرادت ، وهو خاضعٌ لها مطيع لكل بادرةٍ من بوادرها ، فلما عاد الفرس فى سنة ٥٤١ إلى مناصبة الدولة البيزنطية العداء والتحرُّش بها ، أرسلت « تيودورا » إلى « بلساريوس» أن يكفيها أمْرَ الفرس فسارع إليهم وأنزل بهم هزيمةً نكراء .

وفى سنة ٥٤٤ انحدر « القوط الجرمان » من نهر « الدانوب » إلى إيطاليا يكتسحون فى طريقهم البلاد والمدن ، فطيَّرت إليهم « تيودورا » قائدها « بلساريوس » فلم يستطع أن ينقذ « روما » ، فغضبت عليه

الإمبراطورة غضباً شديداً، وأقالته من مَنْصبه، ولم تشفع له انتصاراته السابقة، ولا أنه زوج صديقتها الحميمة فمصلحة الدولة فوق كل اعتبار.

وتقبّلت « أنطونينا » تلك الإقالة بالإذعان والاستسلام ، ثقة منها بكل ما تفعل « تيودورا » وتُدبّر ، فإن ساءها أن يخسف نجمُ زوجها ، فقد التمست لصديقتها « تيودورا » جميع المعاذير يوم أنهت إليها بتلك النكبة أسيفةً معتذرة ، فلم تغير السياسة ومطالب الحكم ما بين الصديقتين من محبة ومودة وثيقة العُرى .

وبدأت « تيودورا » تشعر بانحطاط قواها بعد هذا الجهاد العظيم ، فمنذ وليت العرش وهى فى تفكير متواصل، وجهدٍ لا ينقطع ، ونهوضٍ بأعباء الدولة فى الداخل والخارج ، نهوضاً يعجز دونه أقوى الرجال .

وكأنما « أنطونينا » كانت مصيبةً فى مخاوفها على صحة صديقتها، فهى منذ سنوات لا تفتأ تنصحها وتطلب إليها الرِّفق قليلاً ببدنها ، و « تيودورا » لا تنتصح أو لا تستطيع أن تنتصح ، حتى أخذ الداءُ الوبيل يعيث فساداً فى جسمها الجميل . وهى تقاومه بالإرادة القوية والعَزْم الجليد .

وكان « جستنيان » وصديقتها « أنطونينا » وهما أقرب الناس إليها ، يُدْركان أن حبيبتهما سائرةٌ إلى الفناء بخطواتٍ بطيئة،وأن نُطُس الأطباء لأعْجَزُ من أن يتغلبوا على دائها العُضال، فيشفقان على صِباها وهى بعدُ لم تختم المرحلة الثالثة من عمرها ، ويتحسّران على ذلك الجمال البارع أن

يذوى قبل الأوان ، وعلى ذلك العقل الجبّار والقلب الكبير أن يقفا عن الحركة والخفقان ،فكانا لا يألوان جهداً فى الترفيه عنها وجلْب أسباب السرور لفؤادها .

وأقبل « جستنيان » يوماً على« تيودورا » فألفاها مستلقيةً إلى فراشها « وأنطونينا » تقوم على خدمتها وتسليتها فقال :

— « عزيزتى " تيودورا " لقد أتيت اليوم عملاً لعلّه يرضيك » .

— « وما هو يا عزيزى ؟ » فقال :

— « أتريْنَ إلى العمودين الجميلين المنتصبين فى ساحة " آيا صوفيا " ؟ »

— « عمودَىْ " تيودوزيوس " الثانى وزوجته " أودكسيا " المنتهيين بتمثال من الفضة لكل منهما ؟ »

— « أجل . ولكن عمود " تيودوزيوس " كان فى الأصل كما تعلمين ينتهى بتمثال " هيلانة " أمّ " قسطنطين الأول " » .

— « نعم أعلم ذلك، ولكن ما شأن العمودين ؟ » فقال « جستنيان » :

— « لقد أمرتُ منذ حين ولم أخبرك . بصُنع تمثالين من الفضّة ، أحدهما يمثلك والثانى يمثلنى ، واليوم طرحتُ تمثالىْ " تيودوزيوس " و " أودكسيا " أرضاً ، ورفعتُ تمثالينا مكانهما . فلا يليق بأحد غيرنا أن يرتفع له تمثال فى ساحة " آيا صوفيا " . أيرضيك هذا ؟ » فابتدرت « أنطونينا »تشارك « جستنيان» فى إدخال السرور على قلب « تيودورا »وقالت :

— « كيف لا يرضيها يا مولاى ؟ مَنْ أحقّ منكما بالأثر الخالد فى

هذه الساحة المباركة ؟ »

فتبسمت « تيودورا » وسرّتها هذه اللفتة من زوجها ، وهذه الذكرى المجيدة التى خصها بها وبه وقالت بصوتٍ خافتٍ :

— « نعمَ ما فعلتَ يا عزيزى ، فأنتَ صاحبُ "آيا صوفيا" وخليقٌ بتمثالك أن يحدّث العصور القادمة بفضلك ومجدك وعظمتك ، وخليق بتمثالى أن يقول لها : كان " جستنيان " أعظم إمبراطور على وجه الأرض ».

كاد « جستنيان » ينفرط من مآقيه الدمع عند سماعه هذا الكلام الرقيق الحلو الذى هزّ جوانحه ، فحيّا وخرج مسرعاً إلى مخدعه ، حيث أطلق لعَبَرَاته العنان ، أما « أنطونينا » فغالبت دمعها واوعتها وقالت :

— « كنت أقول لك يا حبيبتى عند ما دخل جلالة الإمبراطور علينا إن شفاءك أكيد مضمون لو رضيت أن تذهبى إلى تلك العين المتفجرة بالماء الساخن فى جزيرة "يالوڤا" واستحممت به » . فقالت « تيودورا » حزينة :

— « لقد انقضى عهد المعجزات يا حبيبتى ، فالأطباء عجزوا عن شفائى وكلهم نَدُسٌ بارع ، فهل تظنّين الماء الساخن المنبثق من الأرض أقوى أثراً من نطْس الأطباء فى اجتثاث دائى ؟ » فقالت « أنطونينا » :

— « أتريدين أن أروى لك الأسطورة التى تدور على الألسنة من عصرٍ إلى عصر عن منافع هذا الماء الساخن وكيف عرف ؟ » ولم تنتظر « أنطونينا » الجواب بل أسرعت فقالت :

— « قيل إن ابنة ملك من ملوك القسطنطينية فى عهدٍ من العهود

الغابرة . اعتلّت صحتها ، ولازمها الضعف والهزال ، فعالجها الأطباء حتى يئسوا من شفائها ، فنصحوا أباها الملك أن يرسلها تبدل الهواء فى بقعة من البقاع فاختار لها جزيرة " ياالوقا " ، فرحلت الفتاة إلى تلك الجزيرة وأقامت بها مدة من الزمن ، فلم ينفعها تبديل الهواء ولا أكسبها الصحة التى تنشدها وبقيت على ضَعْفها وهزالها كأن داءً خفياً ينخر عظامها » .

– « هذا ما أشعر به يا حبيبتى ، فلن ينفعنى إذن هواء تلك الجزيرة ولا ماؤها » . فقالت « أنطونينا » :

– « صبرك يا حبيبتى . . . فإن تلك الفتاة مرّت كثيراً بينبوع الماء الساخن فلم تكترث له ، حتى رأت يوماً ورأى معها من كان يصْحبُها فى نُزْهاتها ، قنْفُذاً منطرحاً قرب العين لاحراكَ به ؛ كأنه فريسة داءٍ خفىّ ، ومرّت الفتاة وصحْبها بعد أيام قلائل بذلك المكان ، فلم يجدوا للقنفذ أثراً ، فأيقنوا أن الحيوان قد شفى من دائه وإلاّ ما استطاع التّنَقّْلة والسير . وأجمعوا على أن سبب الشفاء لا بدّ أن يكون ماء الينبوع والطين الذى يحفّ به ، فنصحوا الفتاة بأن تدهن جسمها بذلك الطين . ثم تستحمّ بذلك الماء ، ففعلت وما لبثت بعد مدة وجيزة حتى عادت إليها صحتها ، ورجعت إلى أبيها نضيرةَ الوجه ، مشرقة الصّبا ، غضّة الإهاب ، فلماذا لا يكون ذلك الينبوع معك سمحاً كريماً كما كان مع تلك الفتاة ؟ »

وأذعنت « تيودورا » فى آخر الأمر إلى رجاء صديقتها « أنطونينا » ، ولما علمت وصيفتها « تينا » بالأمر سجدتْ لله شكراً . ودعت لسيدتها بالبرء

والشفاء ، وحمد « جستنيان » للصديقة « أنطونينا » اقتراحها وحثها « تيودورا » على تنفيذه ، راجياً من وراء ذلك إبلال زوجته الحبيبة من مرضها الذى حار فيه النطاسيون البارعون .

وأعلن فى القصر عزم الإمبراطورة على الرحيل إلى جزيرة « يالوفا » ، فقام القصر وقعد . واختير المرافقون لها من الوصيفات والأمناء والأطباء والممرضين . وانهمك رجال البلاط كبيرهم وصغيرهم فى إعداد معدات الرحلة ، وتوفير مستلزماتها من طعام وشراب ، وخيام وفرش ، وأرائك ووسائد . ورغبت « تيودورا » إلى صديقتها « أنطونينا » ووصيفتها « تينا » أن تعتنيا بنقل أكبر عدد من صناديق ثيابها وحللها ، وعلب لآلئها وجواهرها وأصدرت أمرها أن يرافق موكبها أربعة آلاف رجل .

وحان يوم الرحيل فودع « جستنيان » زوجته وداعاً حاراً ، متمنياً لها البرء العاجل والعود الحميد . فشكرته « تيودورا » شكراً جزيلا ، ثم أمر « جستنيان » فدوى النفير معلناً قرب تحرك الموكب ، وبعد قليل سار ذلك الموكب العظيم تكتنفه آلاف الحراس ، وفى وسطه مركبة فاخرة محلاة بنقوش الذهب والفضة ، استوت فيها « تيودورا » وجلست عن يمينها « أنطونينا » وعن يسارها « تينا » وسار وراء تلك المركبة عدد كبير من مركبات النبيلات والنبلاء ، وكبار رجال البلاط ونسائه .

وما زال الموكب يسير الهوينى و « جستنيان » يحدق فيه ويرمقه بنظراته ، وهو واقف فى شرفة القصر الإمبراطورية ، حتى غاب عن بصره

وحجبته عن عينيه تلالُ المدينة والقصور المشيّدة فوق رؤوس تلك التلال، فدخل «جستنيان» إلى مخدعه مهموماً مغموماً، وركع فى مصلاّهُ يدعو الله أن يرحم شباب «تيودورا» ويرحم معها قلبه المتفطر أسًى ولوعة على زوجته الحبيبة وشريكة حياته وسلطانه.

ووصل الموكب إلى خليج القسطنطينية فاستقلّ أفراده مئات المراكب والسفن فجرت بهم تمخر العباب إلى جزيرة «يالوڤا».

وسارع الحرس إلى اليابسة، فنصبوا الخيام، وأقاموا المعسكرات، وضربوا قرب عين الماء قُبّةً من فاخر الجلد المبطن بالحرير، وفرشوا أرضها بالبُسُط والديباج، وزيّنوا حوائطها بزخارف الدمقْس وجميل التصاوير. ونصبوا فى وسطها سريراً فخماً يعلوه التاج الإمبراطورى، ومدّوا فوقه فِراشاً وثيراً، وأحاطوا جانبيه بالحشايا الناعمة ووسائد الريش.

تلك كانت قبة «تيودورا» أشرفت «أنطونينا» و «تينا» على إعدادها وملاحظة كل كبيرة وصغيرة فيها، كما أشرفتا على إعداد سرادق واسع إلى جانبها، نقلتا إليه صناديق الثياب والحلل، ونصبتا فيه سريرين لهما حتى تكونا على مسمع من الإمبراطورة ورهن إشارتها.

وفى صباح اليوم التالى بدأت «تيودورا» تعالج بدنها بالطين وماء الينبوع الساخن، تساعدها جوقةٌ من الوصيفات وعلى رأسهن «أنطونينا» و «تينا» وعيون هؤلاء النسوة عالقة بكل حفنة طين وقطرة ماء، يرتجين من ورائها النفع والبرء لربّة التّاج والصّوْلجان . . .

١٢

مكثت « تيودورا » مدةً من الزمن فى « يالوڤا » تستشفى بمياه العيّن الساخنة ، ويرجو مَن حولها أن يمنّ الله عليها بنعمة الشفاء ، ولكن مضت الأيام والأشهر ، وحالها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ؛ ففهم خاصّتها أن لا نفعَ يرتَجى لمريضتهم من الاستحمام بتلك المياه ، والتدلُّك بذلك الطين ، فقرروا العودة إلى القسطنطينية مستسلمين لمشيئة الأقدار .

وسارع « جستنيان » إلى لقاء زوجته ، وانتظرها ساعاتٍ طويلة عند خليج العاصمة ، يُغالبُ الشوقَ إليها والشوقُ يغالبه ، وتذهب نفسه حسراتٍ على حبيبته الغالية ، بعد إذ علم أن القدر قد حال بينها وبين الشّفاء ، وأن الداء قد اشتدّت وطأته عليها ، وأخذ يدبّ دبيبه المنكر فى جسدها الجميل .

تبين له فى هذه الفترة القصيرة التى غابت فيها عنه، واضطُرَّ أن يحمل وحده أعباء الحكم، أيّة عبقرية تتحلّى بها هذه المرأة العظيمة الممتازة، وأية شريكة وهبه الله إيّاها ، فما كان ليجهل قطّ مواهبها الفريدة ، ومزاياها النادرة ، ولكنه قدرها صادقَ قدرِها فى هذه الأشهر القليلة التى تركته فيها يجابه وحده الصِّعاب، وينهض بأعباء الحكم الثِّقال .

كان يفكر فى كل هذا وهو ينتظر قدومها على أحرَّ من الجمر ، ويفكر فى أيام الهناءة والسعادة التى قضاهابقربها ، ويستعيد فى خاطره أعذبَ الذكريات التى يحفِلُ بها قلبه من يوم رآها ترقص على المسرح، ومن يوم أحبّها وأحبّته، وعاشا معاً فى ظلال ذلك الحب، وكلٌّ منهما رَوْح الآخر ورَيْحانه . ذكر ذلك كله وذكر معه أنه لولا شجاعتها وذكاؤها ما استنقذ العرش فى ثورة « نيكا » ، ولا استتبَّ الأمن بعدها ، ولا خلا له الجوّ فأتمّ « مدوّنته » ، ولا وجد من وقته فراغاً ومن مملكته ثروةً وغنًى ليشيد « آيا صوفيا » أعجوبة الأعاجيب . وكان كلما انتقل من تذكارٍ إلى تذكار وفكر فى داء زوجته العُضَال، تضرّع إلى الله أن يمنّ عليها بمعجزة الشفاء فإنها أهلٌ لأن يشملها ببعض معجزاته .

ووصلت المراكب والسفن ورست فى الخليج ،فهبط « جستنيان » إلى سفينة زوجته العزيزة الغالية يهنئها بسلامة الوصول ، وينثر على سمعها عبارات الشوق والحب ، فشكرته وهى لا تكاد تقوى على الكلام .

وقضت « تيودورا » بعد رجوعها من « يالوڤا » نحو شهر لم تفارق فيه

الفراش ، وكان الداء يتمكّن منها يوماً بعد يوم ، ولا يستطيع الأطباء له دَفعاً ، وكثيراً ما عادها « جستنيان » وفى يده رسائل الملوك والأمراء والعظماء، وكلهم يستفسرون عن صحتها الغالية، ويتمنّون لها عاجل الشفاء فكانت تبتسم لزوجها وتقدُر له حرصَه على أن يشغلها بأسباب المجد عن آلام الداء .

واشتدت عليها وطأة المرض فى إحدى الليالى ، فأسعفوها بالعلاج السريع ، وبقيت « أنطونينا » و« تينا » ساهرتين عند سريرها ، فى حين لزم الإمبراطور مخدعه واستسلم للبكاء والصلاة .

وفى الهزيع الأخير من الليل فتحت « تيودورا » عينيها ، فوقع نظرها على « أنطونينا » و « تينا » فقالت لهما :

— « اقتربا منى يا صديقتىَّ أودّعكما الوداع الأخير . . . أين الإمبراطور ؟ أريد أن أودّعه هو أيضاً وداعى الأخير، فقد كان لى نِعْمَ الزوج ونعمَ الرفيق » . فهبت « أنطونينا » تريد أن تستدعى الإمبراطور ، فوقفتها « تيودورا » بإشارة منها وقالت :

— « تريّثى قليلاً يا حبيبتى ، فلا يليق أن أقابل الإمبراطور وأنا غير مستعدة للقائه . . . أنهضينى قليلاً يا عزيزتى "تينا" وأجلسينى فى السرير جلسة مريحة » . فخفّت المرأتان تلبيان ما طلبت فقالت « تيودورا » :

— « أصدقينى القول "يا أنطونينا" أما زلتُ جميلة ؟ أما زال جمالى مَشْغَلَةً للقلوب برغم أنى تجاوزت طور الشباب» . فقالت « أنطونينا » :

ـ « أنت يا حبيبتى لا تزالين فى مستهل العقد الرابع من عمرك ، وهو عهد الشباب المكتمل النضارة ، أما جمالك فهو هو مَضْرِبُ الأمثال ومُفتتَن النفوس ، أليس كذلك يا " تينا " ؟ » فقالت « تينا » وهى تَشرق بالدمع :

ـ « إنك لعلى أعظم جانب من الجمال يا مولاتى ، فأنتِ أنتِ منذ عرفتك إلى اليوم آية آيات الله فى الحسن والجمال ! » فقالت « تيودورا » :

ـ « أما غيَّرَ الداء من بهائى ونضارتى ؟ أجيبانى يا عزيزتىّ ولا تكتمانى الأمر » . فقالت المرأتان معاً :

ـ « كلا . كلا . » فقالت « تيودورا » :

ـ « إذن أموت قريرة العين ، فلسوف يذكرنى الناس بما عرفونى عليه من بهاء وجمال » . فقالت « أنطونينا » :

ـ « اطردى وهم الموت من مخيلتك يا حبيبتى ، وابعدى ذكره عن لسانك ، فسوف تعيشين وتتمتعين بالحياة . . . » فقاطعتها « تيودورا » وقالت بصوت ضعيف وقد أتعبها الحديث :

ـ « إنى أعلم يا حبيبتى أن ساعاتى قد أصبحت معدودة . . . أشعر بدبيبِ الموت يحتلُّ بدنى جارحةً جارحة . . . ما لى أراكما تنتحبان ؟ . . . كلُّ نفس ذائقة الموت . . . وصيتى إليكما عند ما أُسلِمُ الروح ، أن تمسحا جسدى بالعطر والمَلاب ، وتلبسانى حُلّتى الأرجوانية المرصّعةِ بنسور الذهب ، وتملآ نعشى بأطيب الريحان . . . »

وكانت « أنطونينا » و « تينا » تسمعان هذا الحديث وعبراتهما منهلّةٌ على خدودهما فنظرت إليهما « تيودورا » وقالت :

ـ « لا تبكيا يا حبيبتيّ . . . اطلبا لى الرحمة . . . اغفرا لى تقصيرى أو قصورى فى شأنٍ من شؤونكما . . . سامحينى يا " أنطونينا " على أن كنتُ غليظةَ الكبد مع زوجك . فالإمبراطورية أغلظ منّى كبداً ، فهى التى لا تشفق ولا ترحم . . . »

وسكتت هنيهة كمن يستمد القوة لمواصلة الكلام ثم قالت :

ـ « هاتى يا "تينا" أدوات الزينة . وتعالَىْ زيّنينى لألقى ربى جميلةً وضّاحة القسمات مثلما خلقنى جميلةً وضّاحة القسمات ، ثم إذا فرغتِ من زينتى فادعى الإمبراطور ليودّعنى وأودعه . فلست أبغى إلا أن يحفظ عنى أجمل تذكارٍ لأجمل صورة . . . »

وتعاونت الصديقتان على تزيينها وتجميلها . وهما تذرفان الدمع السّخين . فما كادتا تفرغان من عملهما . حتى رأتا الإمبراطور يدخل الحجرة فى مشية رقيقة متمهّلة . ويتجه إلى « تيودورا » ويحدّق فى وجهها الجميل ويقول :

ـ « ما أجملك يا " تيودورا " ، غداً تنهضين من الفراش . وتستعيدين صحّتك ، ويفرح لشفائك العالم أجمع . . . » فقالت « تيودورا » :

ـ « يسرّنى يا حبيبى أنك لاتزال ترانى جميلة . . . أما الشّفاء فبينى وبينه هوّة سحيقة . . . أنا أعرف أن ساعتى قد دنت . . . فاذكر

يا حبيبي زوجتك الجميلة ، واذكر أنها نعِمَتْ بحبك ونعمتَ بحبها قرابة ربع قرن ، وكنتما معاً مثال الزوجين السعيدين . . . اذكر شريكتك فى الملك ، واغفر لها هفواتها وسيئاتها ولا تذكرها إلا بحسناتها . . . »

وازداد صوتها خفوتاً وضعفاً ، فقالت فى صوت أشبه بالهمس :

— « الوداع يا " جستنيان " الحبيب . . . الوداع يا صديقىّ المخلصتين . . . بلغوا سلامى الأنصار والخصوم . . . انقلوا تحيتى إلى " بيزنطة " التى قدّمتُ نفسى وشبابى قرباناً على مذبحها . . . وداعاً أيتها الحياة . . . وداعاً يا " جستن . . . " »

وقبل أن تتم لفظ اسم « جستنيان » كانت روحها قد انتقلت إلى بارئها ، فركع أحبابها الثلاثة عند سريرها ينتحبون ويذرفون الدمع السخين.

وعند الفجر ، فجر اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو سنة ٥٤٨ ، دقّت فى القسطنطينية للمرة الثالثة فى خلال عشرين عاماً نواقيس الحزن والحداد التى لا تدقّ إلا للملوك والملكات ناعيةً إلى البساتين وردتها وإلى الجمال ربّته البهية ، وإلى العبقرية رمزها الحىّ ، وإلى الدولة البيزنطية والعالم أجمع الإمبراطورة « تيودورا . . . »

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٧١٥٠
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 4622 – 0

٧ / ٩٤ / ١٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)